طه حسين

توفيق الحكيم

القصر المسحور

دار الفكر الحديث

القاهرة

الى

التي كانت تشيع زهابنا الى القصر
المسحور وتلقي عودتنا منه بنظرات
حائرة وبسمات ساخرة ولكن فيها
مع ذلك الرحمة والاشفاق والتشجيع
لأنها تعرف كيف تجي ثمرات
الادب وتبعث نشاط الأدباء . . .

الى : سلام لطه حسين . . .

نرفع حديث القصر المسحور ؟

توفيق الحكيم و طه حسين

سَمِيرَ شَهْرَزَاد

« من مأمنه يؤتى الحذر » كذلك قالت حكمة القدماء .
وأبت الظروف إلا أن أكون أنا الدليل الناصع على صدق ماقالت حكمة القدماء . فقد [illegible] بالحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المتنوعة [illegible] حتى لم أستطع لها احتمالا ، وحتى ضعف كل جسمى وانهدت لها قواى ، وعجزت لها أعصابى عن المقاومة فأصبحت سريع الغضب سريع الرضى ، سريع الانفعال بوجه عام حتى أنكرت

نفسى وأنكرنى الناس ، ولم أر بداً من أن أفر بما بقى لى من قوة العقل والجسم إلى مكان بعيد أخلو فيه إلى نفسى ، وأستريح فيه من هذه الجهود المتصلة وأسترد فيه بعض ما أنفقت من القوة ، حتى إذا استجمعت منه حظاً لا بأس به عدت إلى مصر فأنفقته مرة أخرى فى غير تقصير ولا اقتصاد .

من أجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مراً سريعاً كأنه مر الطيف، فلم يرنى الحى اللاتينى إلا مرة أو مرتين . ثم أويت إلى هذه القرية النائية المنزوية فى عطف من أعطاف الجبل ، إلى هذه القرية التى لا يعرفها المصريون ، والتى يمرون بها فى طريقهم إلى المصايف المعروفة دون أن يخطر لهم الوقوف عندها أو الإقامة فيها . واخترت مع أهلى فندقاً متواضعاً متوسط الحال لا تشغل أهله هذه الحركات العنيفة التى تشغل المصطافين ولا يخطر لمصرى أن يأوى إليه إن ألم بهذه القرية خطأ ، لأن المصريين فى العادة إذا عبروا البحر لا يأوون

إلا إلى الفنادق الفخمة التى يكثر فيها الفرح والمرح ويظن بأهلها الغنى والثروة وتعود الترف والنعيم .

ولما بلغت الفندق أكرهت صاحبى على أن يختار لنفسه أو اخترت له أنا غرفة فى الطابق الأعلى الذى لا يصعد إليه أحد إلا الذين لا يكلفون بالراحة ولا يشفقون من الجهد ، لأن غرفة صاحبى إذا كنا فى أوروبا هى فى الوقت نفسه الملجأ الذى ألجأ إليه إذا أردت القراءة أو الاملاء .

وكذلك اعتقدت ، وكان لى الحق أن أعتقد ، أنى قد أمنت الضجيج والعجيج وضمنت الراحة والهدوء ، وأعددت لنفسى ما أنا محتاج إليه لأسترد النشاط من جهة ولأعوض الوقت الضائع من جهة أخرى ، فأقرأ كثيراً وأكتب قليلا .

وإنى لمع صاحبى ذات يوم قد خلونا إلى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجى حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان ولا

غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون فى حديقة الفندق ، وإذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً لا نحفل به ولا نلتفت إليه ، نظن أنه لا يعنينا وإنما يعنى الغرفة المجاورة ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتد شيئاً ، ثم يضطرنى الى أن ألتفت ، ويضطر صاحبى الى أن يضع الكتاب ثم يضطره الى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ، وكان قد أغلقه فاحكم إغلاقه إيثاراً للعافية واغراقاً فى التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبى يفتح الباب حتى رأى شخصاً غريباً كان يقدر أن يرى كل انسان وأن يرى كل شىء دون أن يراه . شخصاً شرقياً فى زى أهل العراق لم يعرفه قط ، وهو من أجل ذلك ينكره أشد الأنكار وينكر وجوده فى هذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتداءه الى هذا الفندق وصعوده الى هذا الطابق وطرقه باب هذه الغرفة . وكان صاحبى مقتنعاً بأن هذا الشخص قد أخطأ طريقه وجار عن سبيله وقصد الى غير مقصد ، ولكن الشخص يسأله عنى ويدفع اليه كتاباً يطلب منه أن يتلوه

على . فيعود صاحبي الى حيران دهشاً قد كاد يدركه الأختلاط لولا أنه تعود مثل هذه المفاجآت منذامتحنته الأحداث بمصاحبتى . فهو يفض الكتاب ويقرأ على هذه الأسطر .

سيدى

« علمت اليوم أنك معتزل فى عطف من أعطاف هذا الجبل الذى أصطاف قريباً من قمته ، فنازعتنى نفسى إلى أن أراك ، ثم دفعتنى نفسى إلى رؤيتك دفعاً لم أجد عنه مندوحة ، وكنت أحب أن أسعى إليك حتى لا أكلفك مشقة الحركة وجهد الانتقال ، ولكنى آثرت أن تسعى الى حتى لا أكلفك مشقة هى أثقل على نفسك فيما أعتقد من المشقة الأولى لأنها معنوية فأنت تكره من غير شك أن تسعى سيدة للقائك ، وأدبك يفرض عليك أن تسعى أنت للقائها . وإذن فأنا أكتب إليك راجية أن تتفضل فتهيأ للقائى ، ولكنى أحب أن تعلم أنى لا أزار إلا حين منتصف الليل وأن زيارتى لن تكلفك جهداً ولا

عناء ، فاذا تقدم الليل وكاد ينتصف فانتظر متهيئا للخروج ولك أن تصطحب هذا الفتى الذى يلزمك لزوم الظل إن لم تر من اصطحابه بدآ ، ولك أن تتركه إن كنت قد ضقت به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الأشياء من حين إلى حين، فأنا أعرف من أمرك ياسيدى أكثر مما تظن . وتقبل تحية المشوقة إلى لقائك .

شهرزاد

أظنك أيها القارىء العزيز غير محتاج إلى أن أصف لك ما أدركنى من الدهش وماأدرك صاحبى من الذهول، ولكن دهشى وذهول صاحبى تجاوزا حدهما حين التفت صاحبى فلم ير الفتى العراقى الذى حمل إلينا الكتاب، وحين التمسه فى الفندق فلم ير له أثراً ، وحين سأل عنه أصحاب الفندق فظهر له أنهم لم يروه ولم يحسوه ولم يعرفوا له خبراً ، وأن أحداً لم يسألهم عن مكاننا وأنهم لم يدلوا أحداً على هذا المكان .

كاد الدهش والذهول ينتهيان بصاحبى وبى إلى الجنون

أو إلى ما هو أكثر من الجنون ، وقد خيل إلينا لحظة أن خيالا من هذه الخيالات التى تملأ الضمائر وتنكرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا ، وأن الذى أثار هذا الخيال هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم إلى قريتنا منذ يومين .

فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم الى هذه القرية فى قصة لعلك تظهر عليها وقتاما ، ومنذ انتهى الينا كثر الحديث بالطبع عن «أهل الكهف» و«شهر زاد» و «عودة الروح» وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والانتاج والتقصير ، وكل هذا العناء الذى فررنا منه إلى فرنسا مقسمين أن نتجنبه أثناء الصيف . فخيل إلى صاحبى وإلى أن كثرة الحديث فى الأدب وفى أبطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القصص الذى عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدى صاحبى يمسه بيديه ويراه بعينيه ويقرأ علىّ مافيه من الكلام .

وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المساء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلا ورعبا حتى أنكرنا

خلطاؤنا وأشفق على أهلى وخيل إليهم أنى أتهيا لعلة من العلل أو للون من ألوان الحمى ، ولست أخفى عليك أنى اجتهدت كما اجتهد صاحبى فى أن نخفى هذه القصة على من حولنا مخافة أن يظن بنا الجنون وأن ندخل الروع على قوم آمنين .

ومن عادتنا إذا رفعنا أيدينا عن طعام العشاء أن نمشى قليلا فى طريق من هـــذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا الهواء الطلق الأرج ثم نعود إلى مخبئنا فنخلو إلى كتبنا حتى يدعونا النوم إلى أن نستريح . وقد جهدنا رغم ما كان يملأ قلبينا من هذا الخوف المتزايد من لحظة إلى لحظة فى أن نجرى الأمور كما تعودنا أن نجريها دون أن نغير شيئاً مما ألفنا .

فلما آوينا آخر الأمر إلى غرفتنا الشاهقة فى السماء لم نقرأ صحيفة ولم نفتح كتاباً ولم ننظر فى ديوان ، وإنما ليثنا فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحد الخطرين: فاما أن يتحقق ما أنبأنا به الكتاب وإذن فالله وحده

يعلم ما وراء ذلك ، وإما أن يتكشف الأمر عن لا شيء فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتاباً ولم نتلق دعوة ولم نتعرض لخطر ولم نحس خوفاً ، وإذن فهو الشر الذى ليس بعده شر ، هو الجنون الذى لا يختص به فرد من الأفراد وإنما يشترك فيه اثنان

وهذه دقات إحدى عشرة تنبئنا بان انتصاف الليل ليس بعيداً وهذا العرق البارد يسيل على جبهتينا ، وها نحن هذان نتكلف الجلد ونأن على أسناننا أن تصر وعلى فرائصنا أن ترتعد ولكن ماذا ! هذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح دون أن نأذن بالدخول ، ثم . . . ونفيق وإذا نحن فى مكان غير المكان الذى أنفقنا فيه أول الليل ، ولكن الغريب أننا لا ننكر أنفسنا ولا نحس خوفا ولا وجلا ولا نجد إلا مايجده الزائر لانسان ذى خطر من هذا التهيب اليسير الذى يشغله أثناء الانتظار أن يؤذن له .

ولا يطول هذا الانتظار وإنما هو قصير جداً لا يتيح

لنا أن نتبين الغرفة التى ننتظر فيها ولا الأثاث الذى يحيط بنا ، فهذا باب يفتح فى جانب من جوانب الغرفة ، وهذه فتاة رشيقة أنيقة تدخل منه مشيرة قائلة فى خفة وفى لهجة عربية فصيحة عذبة « هل لهذين السيدين أن يتبعانى » فنتبعها آمنين مطمئنين كما تعودنا أن نفعل فى مصر حين نزور من نزور من العظماء وأشراف الناس . وهى تسعى بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشى فى الهواء ونحن نتبعها متنقلين معها من غرفة إلى غرفة ومن بهو إلى بهو تصل إلينا من بعيد أنغام عذبة هادئة متصلة كأنها غناء الأرواح ، إن كنا قد سمعنا غناء الأرواح . ثم تنتهى بنا هذه الفتاة الحسناء إلى أستار ثقال فتقف لحظة مشيرة الينا أن سيدتها هنا وراء هذه الأستار . ثم تتقدم فتنحى ستراً عن يمين وستراً عن شمال، وتمضى خطوات ثم تنحنى محيية ثم تنحرف لنا عن الطريق ثم تنصرف وقد تركتنا مع شهر زاد .

وشهر زاد تلقانا باسمة مبتهجة مشرقة الوجه طلقة

الأساريير ولكنها لا تتحرك من مكانها وإنما تشير إلى صاحبي إشارة خفيفة أن أدنوا ، فندنو وإذا هى مستلقية على هذا الأثاث الذى يسمونه الكرسى الطويل ، قد كثرت من حولها الوسائد ووضعت قريبا منها مائدة صغيرة قد أثقلتها الكتب والصحف والمجلات . وهى تمنحنا يداً صغيرة رشيقة فاذا لثمناها أذنت لنا بالجلوس وأبت إلا أن يكون مكانى قريبا منها ، فنجلس ويتصل الصمت لحظات . ثم نسمع صوتا لا أستطيع أن أشبهه الا بخرير الماء حين يساقط هادئا نحيلا فى حوض من المرمر . وإذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لى : لقد روعناك يا سيدى على غير انتظار منك لهذا الخروج ، فمعذرة إليك ولا تلم إلا نفسك فقد كثر الحديث عنك وكثر ما قرأت لك حتى إذا علمت بقربك منى لم أجد من لقائك بداً . قلت فى صوت مضطرب بعض الشىء ، عفواً يا سيدتى أين أنا ومن تكونين ؟ أريد أن أعرف أنائم أنا أم يقظان ، فقد

اختلفت على أمور منذ اليوم أذهلتنى عن نفسى ، ولا أكاد أبلغ هذه الجملة حتى يتردد فى هذه الغرفة الواسعة ضحك نحيف حلو ، ثم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدى الغليظة الخشنة فى رفق ويقول الصوت البعيد ، لا بأس عليك ، لست نائماً ولا حالماً وإنما أنت يقظان حاضر الذهن ، وأنت عند شهر زاد . شهر زاد ؟ ألا تعرفها ؟ لقد طال ما استمعت لها أيام الصبى ، وقد طال ما اشتغلت بها أيام الشباب ، وما أقرب ما كتبت عنها منذ عامين اثنين . قلت لا تعبثى ياسيدتى فلن تستطيعى أن تقنعينى ، ولكنها قطعت على حديثى قائلة بل أستطيع أن أقنعك بما أشاء ، لقد ملأت قلبك صبياً وملأت عقلك شاباً ، وما ينبغى أن تنحرف عنى حين ينحرف عنك الشباب . إنك لتعلم حق العلم أن شهر زاد خالدة لم يدركها الموت ولن يبلغها الفناء ولن يتحول عنها شبابها . ما بالك تشك فى هذا الآن وقد كنت مؤمناً به حين كنت تقرأ كتاب هذا الشاعر العظيم المسكين الذى فارقنا منذ أسابيع .

قلت هنرى دى رينييه ؟ قالت نعم ، لقد قرأت كتابه وعرفت منه أن لى قصراً فى بغداد ، فوددت لو استطعت أن تطير إلى هذا القصر وأن تلقانى وتسمع منى وتتحدث إلى ، فماذا يروعك وقد تحققت أمنيتك ، فأنت فى قصرى وهذه يدى فى يدك ، وأنت تسمع حديثى وأنا أريد أن أسمع حديثك ، قلت : وما شككت فى أنى مريض قد أخذنى هذيان الحمى : فأنا إذن فى بغداد فى القصر الذى وصفه هنرى دى رينييه ؟ قالت متضاحكة كلا ، أنت فى فرنسا قريب من قمة من قمم الألب . ألم تقرأ كتابى هذا الصباح ؟ أليس من حق شهر زاد أن تصطاف كما يصطاف الناس ، ومن الذى قضى عليها أن تنفق الدهر سجينة فى قصرها السحرى القائم على شاطىء دجلة . لقد تغير الزمان وارتقت الحضارة وأتيح لشهر زاد أن تسترد حريتها وأن تطوف فى أقطار الأرض فتصطاف فى جبال الألب وتشتو فى الريفييرا . قلت ما يمنعك أن تنفق الشتاء مرة فى مصر ؟ قالت لا شىء ، لقد هممت بذلك

فى الشتاء الماضى لولا هذا الفتى الغريب الذى تسمونه توفيق الحكيم ، هو الذى ردنى عن مصر بكتابه هذا الذى لم أحبه ولا أستطيع أن أحبه . قلت متعجباً لماذا ؟ قالت لأنه كشهريار لم يفهمنى وما أظنه سيفهمنى . قلت وهل فهمك أحد ؟ قالت وما حرصكم على أن تفهمونى ؟ وما هذا المرض الذى أفسد عليكم كل شىء فأغراكم بفهم كل شىء . قلت مهلا يا سيدتى لا تغضبى ، فانى لم أفهمك ولم أحاول فهمك ولن أحاوله ، لأنك أحب إلى وآثر عندى وأجمل فى نفسى من أن أمسك بهذا السوء الذى نسميه الفهم واستكشاف الحقائق ، قالت وقد ملأها الرضى والابتهاج فاستوت جالسة ، لهذا أحببت أن أراك لأنك ترى مثل ما أرى وتؤمن بأن من فهم شيئاً فقد قتله ، وتحب لى أن أحيا فى نفسك فلا تحاول أن تقتلنى بالبحث عن حقيقتى والجد فى الانتهاء إليها . ولكنك لا تعلم من أمرى كل شىء ، قلت ولا أريد أن أعلم من أمرك كل شىء . قالت فى لهجة المتعبة المحزونة ،

شيء واحد أحب أن تعلمه حتى لا يكون حبك لى إعجاباً كله ، فقد يرضينى أن يكون فى هذا الإعجاب بى شيء من الأشفاق على . قلت وما ذاك ؟ قالت فى تهالك وفتور ، علة أخذت تعتادنى منذ حين ، هى ضيق الصدر الذى يلم بى إذا جن الليل فيحرمنى الراحة ويحول بينى وبين النوم . وليست فى الدنيا شهر زاد أخرى تستطيع أن تذود عنى هذا الضيق وتسلينى عن هذا الحرج وتقص على من القصص ما يدعو إلى النوم كما كنت أفعل أنا مع شهريار فى سالف الأزمان . قلت وقد أشرق وجهى وامتلأ قلبى بشراً وانطلق من فمى ضحك لم أحسن ملاحظته وتنظيمه واندفع فى جسمى نشاط لم أستطع كبحه ، وإذا أنا أرفع يدها الرشيقة الناعمة إلى شفتى فألثمها لثماً متصلا وهى تلحظنى دهشة متعجبة . قلت حين عاد إلى الهدوء : لا بأس عليك ياسيدتى ، علة طارئة لن تلبث أن تزول ، سأردها عنك منذ الليلة ، سأصف لك الدواء الذى يردها عنك آخر الدهر . قالت متلهفة وكيف ذاك ؟ وما ذاك ؟

ماذا تقول ؟ أجاد أنت ؟ أصادق أنت ؟ لقد عهدتك مشغوفاً بالمزاح ؟ قلت وقد عـــدت فأشبعت يدها لثماً وتقبيلا ، والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة ياسيدتى ، فلأدعون إليك النوم من ليلتك هذه ، ولأعلمنك كيف تدعينه منذ غد . قالت وكيف يكون ذلك ؟ قلت ستتخذين لك سميراً . قالت مبتسمة فى شىء من السخرية ، وستكون أنت هذا السمير . قلت محزوناً : ليتنى أصلح لذلك ياسيدتى إذن أكون أسعد الناس ، قالت أو لا تصلح أنت لذلك ؟ قلت كلا ياسيدتى ، أنا أقل الناس حظاً من الخيال وأعجز الناس عن القصص ، وأضيقهم بنفسى وبالوقت ، ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتباً وتأذن أنها ستظل أبداً مملوءة كتباً لما استطعت لهذه الحياة احتمالا . قالت ومن لى إذن بهذا السمير ؟ قلت وأنا لك به يا سيدتى ، إنه صديقك العزيز عليك ، الأثير عندك ، الحبيب إليك . قالت أوجز . قلت إنه توفيق الحكيم وهو منك قريب ليس بينك وبينه إلا ما كان بينك وبينى من الأمد حين كتبت إلى ، إنه فى

الفندق الذى أنا فيه . قالت وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام وامتزج فى صوتها الغضب والفرح معاً هو إذن هنا هذا الآثم ، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد. قلت : ولتعلمن أنت يا سيدتى كيف يرضيك إذا أقبل النهار وكيف يسليك اذا أظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على قريتنا هذه النائية المعتزلة سقوط الندى . قالت كيف سقط على هذه القرية ، قلت سبقته إليها البشائر بمقدمه السعيد ، لو رأيتنا والباب يطرق علينا طرقاً عنيفاً مع الصبح حتى اذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل الينا كتاباً مستعجلا من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس ورغبته فى أن يلحق بنا ويسألنا أن نختار له فندقاً يأوى اليه وغديراً يصطاد السمك فيه . وما نكاد ياسيدتى نفرغ من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقاً عنيفاً فاذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل الينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب القطار ولم ينتظر رجع الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير

ونلتمس له المواضع التى يجد فيها أدوات الصيد ، وهو يقبل مع المساء كما تعرفينه ، قالت ومتى عرفته ؟ قلت ألم تعرفيه من كتابه عنك . قالت كيف أقبل عليكم ، قلت : أقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضراً كالغائب ، وغائباً كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع أن يأخذ ، وأخذ من باعة الكتب ما استطاع أن يأخذ وقضى نهاره فى القطار بين الكتب والصحف مختلساً بين حين وحين نظرة من نافذة العربة ، مفتوناً بما يرى ، حتى إذا اطمأن به المكان بيننا أخذ يتحدث فأذا هو دهش لكل شيء ، سائل عن كل شيء ، عارف بكل شيء جاهل بكل شيء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب إلى مقالة قرأها فى هذه الصحيفة ، ويتحدث عن الجبل ثم يقفز إلى فصل قرأه فى ذلك الكتاب ، يقبل على الطعام ويأخذ فيه ولكنه مشغول بالنشاط الأدبى فى مصر ، وبهذا الفصل الذى كتب عن ذلك المعرض الفنى فى باريس ، ثم يصبح مشغولا بالصيد مشغوفا به ، متهالكا عليه يلتمس له

أدواته ويعدها ويهيئها ، وهو يفكر فيك وفيما آل إليه أمرك ، وفى كتابه عنك وفى ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية وفيما يمكن أولا يمكن من تمثيل قصتك

قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد أن يظهرنى فى الملاعب ويعرضنى على النظارة ويسلمنى إلى الممثلين ؟ قلت فى شىء من المكر : أظنه يطمع فى ذلك ياسيدتى . قالت ليعلمن ما جزاء من يعبث بشهر زاد . قلت لا تنغصى عليه راحته ، إنه سعيد راض مبتهج مغتبط يزور الجبال لأول مرة ، لو رأيت ابتهاجه حين استكشف فى الغابة شجرة البندق . لقد كان يأكل البندق حافاً ويأكله رطباً ، ويأكله صرفاً ويأكله ممزوجاً ، ويعرف أنه ثمر لشجر ولكنه لم يكن يعرف أين يكون ؟ ولا كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجاً واغتباطاً . وما أرى إلا أنه سيكتب عن شجر البندق فصلا أو كتاباً ، وما أرى إلا أنه سيحدث بين الشجر وثمره حواراً لذيذاً . لا تنغصى عليه راحته

ياسيدتى ، لقد رأى الثلج يغطى رؤوس الجبال لأول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الأحاديث وما كان يقدر أنه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحاً وسروراً ، وأقسم لا يطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملأ منه يديه ، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة إلى مصر .

لا تنغصى عليه راحته ياسيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تلميذا وطالباً ، وسمع أخباره من السائحين ، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شىء يرى ، فلما رآه كاد يخرج عن طوره لولا أن تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد أيمانه ليصعدن فيه وليبلغن قمته ، فاذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصبي النقى : ماذا ؟ أليس يكفى أن أغدو إليه مع الصبح وأعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء .؟

وأنا مندفع فى هذا الحديث عن صديقى الأديب وقد

شغلت به بعض الشيء ولكن صاحبتى مغرقة فى ضحك متصل لا يريد أن ينقضى قد ردها إلى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام فسكت عنها حيناً حتى سكت عنها الضحك. وإذا هى تسألنى: أهو من السذاجة بحيث تصف لى؟ قلت وما وصفت لك من سذاجته إلا أقلها قالت فان كتابه يصوره معقداً أشد التعقيد، قلت هو كذلك معقد أشد التعقيد فاتخذيه لك سميراً فستجدين عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين إلى الراحة، والتعقيد المضنى حين تحتاجين إلى الجد والتفكير. قالت وسيجد عندى علم ما لم يعلم من أمر شهر زاد.

وكان الخدم قد أقبلوا يحملون ألواناً من الطعام والشراب لا علم لنا بها، فلما وضعوا ما كانوا يحملون وهموا أن ينصرفوا استوقفت أحدهم وقالت له: فى الفندق الذى ذهبت إليه صباح اليوم مصرى يقال له توفيق الحكيم فاذا كان الغد فأنى أريد أن أراه. سمع الخادم أمر سيدته فانحنى وانصرف.

ولست فى حاجة إلى أن أتم لك بقية ما كان بينها وبينى من حديث فما أظن أن ذلك يعنيك وإنما هو يعنينى أنا ويعنى شهرزاد ، وحسبك أن تعلم أنى ودعتها آخر الليل وإنها لمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج وتهيأت لاستقبال ساعات نوم لذيذ . وأصبحت ألتمس توفيق الحكيم فى غرفته وفى حديقة الفندق وعند غدير الصيد وفى مظانه من القرية فلا أجده . فأظن أنه ذهب متنزهاً فى طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء وأنه سيعود الينا مع الظهر أو مع المساء ، ولكنه لا يعود مع الظهر ولا مع المساء ، فما أشك فى أن أعوان شهرزاد قد اختطفوه وفى أنه سجين هناك فى ذلك القصر السحرى القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الألب .

سجين شهرزاد

(شهر زاد تتمطى بجسمها المشوق
كالحسام بين وسائدها الحريرية)

شهر زاد — (للعبد القائم على رأسها) هل تم خطف توفيق الحكيم ؟

العبد — خطفناه يامولاتى .

شهر زاد — وماذا فعلتم به ؟

العبد — ألقيناه فى جب القصر المسحور .

شهر زاد — (ضاحكة عن درّ منضد) هذا الساذج المعقد !

العبد ـــ معقد ؟ ! هذا الرجل ؟ كلا يامولاتى .

شهر زاد ـــ كيف ؟ ماذا رأيتم منه ؟

العبد ـــ إنه السهولة بعينها . لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع فى الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه ، ثم انطرح على الأرض فى هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد أصيب ، وما وصلت اليه بعد يد ، ومالمسته أصبع .

شهر زاد ـــ (باسمة) لقد كفى نفسه شر القتال .

العبد ـــ لما وجهتنا إليه يامولاتى حسبنا أنّا سنلاقى هزبراً .

شهر زاد ـــ (ضاحكة) هزبر ؟ ؟ توفيق الحكيم ؟!

العبد ـــ بل أكثر من هذا يامولاتى . قد وجدناه يحمل . . .

شهر زاد ـــ كتاباً .

العبد ـــ بل « سنارة » مما يستعمل فى صيد السمك الصغير . وقد علق « خُطافها » بثيابه ، من الروع لمرآنا !

شهر زاد ــ (وهى تضحك) ألم تجدوا معه قلماً وورقاً ؟

العبد ــ كلا .

شهر زاد ــ لم تجدوا معه غير «سنارة» صاد بها نفسه!!

العبد ــ بل إنا يامولاتى لم نجد معه « طعماً » مما يجتذب به السمك . ولم نجد معه سلة يضع فيها مايصيد . كل مامعه ذلك العود من « الغاب » الذى لا نفع فيه ولا ضر .

شهر زاد ــ (كالمخاطبة لنفسها) نعم ، إنى أعرف هذا الصنف من الرجال . إنه لن يصطاد سمكة فى حياته ، ولا أحسب أنه يذهب يوما إلى بحيرة أو نهر أو بحر . إنما هو يخلق فى رأسه كل هذه الرغبات ، ويعد للوصول إليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه خياله . حتى إذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة ، انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الأمر شىء .

العبد ــ أو مثل هذا الأنسان نائم أو يقظان ؟ !

شهر زاد ــ (على الفور) إنه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم .

العبد — مولاتى . . .

شهر زاد — مابك ؟

العبد — إنك . . . ترددين العبارة التى قالهـــا هنا البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادينه بالدكتور .

شهر زاد — (كمن يثوب إلى نفسه) طه حسين !

العبد — من هذا الرجل ؟ إنى أراه ...

شهر زاد — تكلم !

العبد — شديد الدهاء .

شهر زاد — (باسمة) ماذا رأيت من دهائه ؟

العبد — لست أدرى على التحقيق . إنمـا فى كلامه وابتسامه شىء ينم عن سر مبهم وغرض خفى .

شهر زاد — رح . إنك لست أعرف منى بالرجال . ليس فى الأمر سر ولاغرض . إنمـا هذا الدكتور رجل صريح مستقيم ، وقد أشار على بأمور سأعمل بها .

العبد — هو الذى أشار بخطف هذا الرجل المسكين !؟

شهر زاد — أيها العبد ! إلزم مكانك ولا تعترض على .

العبد — عفواً يا مولاتى وغفراً ! إنك تعرفين إخلاصى وخضوعى . إنها زلة لسان .

شهر زاد — هذا الرجل المسكين إنما هو مسكين حقاً إذا تركناه حراً طليقاً ، إنما ينبغى أن نقتنصه ونحبسه فى هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر قيمته .

العبد — من هذا الذى لا تزهر حياته إلا فى الحبس !!

شهر زاد — إنه ليس مثلك . إنه خلق ليبقى إلى جانبى يبادلنى الفكر .

العبد — فهمت ، تريدين سميراً يؤانسك فى أوقات الضجر .

شهر زاد — (كالمخاطبة لنفسها) نعم . إنى الآن فى سأم دائم ، لأنى لا أجد ، بعد شهريار ، عقلا وخيالا يبهران عقلى وخيالى .

العبد — إن الملك شهريار ذهب ولم يعد .

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) نعم ، لقد أضعته أنا ،

لقد كان حراً طليقاً مرحاً كالطفل فاوحيت اليه بأشياء كبرى مستحيلة ذهب يبحث عنها فلم يعد .

العبد — (كمن نسى نفسه) وقمر ، وأنا . . كل الناس كانوا أحراراً قبل أن يعرفوك !

شهرزاد — (تثوب إلى نفسها) ما ذا تقول ؟ أجننت أيها العبد ! أنت تخاطبنى بهذا الكلام ؟ أنسيت ما قلت لك : إن الماضى قد مات ، وإذا أردت أن تبقى حياً فكن خادماً لا يذكر شيئاً مما كان .

العبد — غفراً يا مولاتى . إنها كانت أيضاً زلة لسان

شهرزاد — آه ! إنى لفى ضجر . أو لم يعد عقلى قديراً على أن يوحى إلى أحد بشىء . . . ما هذا الشقاء !

العبد — أتأذنين ، أحضر السجين بين يديك ؟

شهرزاد — نعم إنه الآن كل رجائى :

العبد — يا مولاتى . لا تضعى كل أملك فى هذا المخلوق المسكين ! ! إنه غير قدير على صيد سمكة !

شهرزاد — ربما كان قديرا على صيد عقلى .

العبد ــ حاشا أن يكون عقلك يامولاتى أهون اقتناصا من السمك ! !

شهرزاد ــ أيها الأحمق ! لا محل هنا لتلك المقارنة .

العبد ــ ومع ذلك . ألا تذكرين قول ذلك الدكتور ؟

شهرزاد ــ ماذا قال ؟

العبد ــ قال البارحة إن هذا الأنسان لم يفهمك قط . .

شهرزاد ــ سنرى .

العبد ــ متى تريدين رؤية السجين ؟

شهرزاد ــ الآن .

(يذهب العبد مسرعاً . . . وتبقى شهر زاد بلا حراك تفكر لحظة ، ثم تنهض فجأة وتتجه الى مرآة فى ركن مظلم ناء فى أقصى المكان ، وتأخذ فى إصلاح هندامها وتنظيم شعرها وصبغ شفتيها وأظافرها . . .) .

العبد — (يعود وهو يقود توفيقا الحكيم بمعطفه الأسود و « سنّارة » صيده) تقدم يا هذا !

توفيق — (للعبد) إلى أين أيضاً ؟ !

العبد — قلت لك تقدم !

توفيق — (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه) أما أنى خُطفت فهذا لا شك فيه . نعم . ان صحت فراستى وصدقت فطنتى فانا الآن مخطوف . (يستدرك متنبهاً لما قال) ما هذا الحمق ! أهو أمر يحتاج إلى فراسة وفطنة أن أعرف أين أنا الآن ؟ إنى أكاد أجن جنونا . أخبرنى أيها الأسود ! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجباً) ما أصلح هذا الأسود لتمثيل دور « العبد » فى قصتى « شهرزاد » ! . . (يمسك بذراع العبد) أخبرْ أيها . . .

العبد — (يلمح مولاته مقبلة إلى وسائدها فينهر سجينه) صه !

توفيق — ماذا جرى ؟

العبد — (همساً) اركع !

توفيق ـــ (لا يفهم) أركع ؟ لماذا ؟ لمن ؟

شهرزاد ـــ (تبدو فى جمال وجلال ودلال) هـــذا أنت ؟!

توفيق ـــ (يلتفت إلى الصوت الموسيقى مشدوهاً يتمالك أن يركع من تلقاء نفسه فى غير وعى) ؟

شهرزاد ـــ (تبتسم راضية ثم تهمس إلى العبد) أتركنا !

العبد ـــ (ينصرف وهو يلقى على السجين الراكع نظرة استغراب لحاله واضطرابه) ؟

شهرزاد ـــ (للسجين فى صوتها العذب) انهض !

توفيق ـــ (ينهض وهو مطرق) ؟

شهرزاد ـــ (باسمة) عرفتنى ؟

توفيق ـــ (فى صوت خافت ولم يزل عنه بعد أثر الدهش) نعم .

شهرزاد ـــ (معجبة مغتبطة) لا يدهشنى ذلك منك ، فأنت عقل كبير وخيال واسع .

توفيق ـــ (ينظر إليها ولا يفهم عنها) ؟

شهرزاد — لماذا تنظر إلىّ هكذا ! ألا تصدقنى ؟

توفيق — أ . . و . . تعرفيننى . . يا سيدتى ؟

شهرزاد — كيف لا . إنى أعرفك كما تعرفنى . ولقد كان ينبغى أن يلتقى أحدنا الآخر .

توفيق — (لنفسه) أرجو أن ينتهى هذا اللقاء على خير!

شهرزاد — ما هذه النظرة الحيرى ! ألا يسرك أن ترانى ؟

توفيق — (مندفعا بتأثير جمالها) بالطبع . إنه لشرف عظيم . . (ثم يتذكر فيستدرك :) كلا . . إنه ليس كذلك .

شهرزاد — (فى تقطيب) ماذا تقول ؟

توفيق — سيدتى ! لماذا انا ههنا ؟

شهرزاد — (باسمة) إنك جئت كى ترانى واراك .

توفيق — فقط ؟؟ كلا يا سيدتى . فى الأمر ولاشك غلط ! أنا رجل من اهل مصر أضنانى التعب والجهد طوال اعوام قضيتها فى قراءة وكتابة وأعمال رسمية بغير هدنة

أو انقطاع ، فجئت هذا الصيف إلى جبال الألب للنزهة وراحة البال . لكن . . بينا أنا أسير الهوينا فى المساء فى ذلك الطريق المؤدى إلى شامونيكس ، أستنشق النسيم المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق ، القائمة اشجاره فى الغابات الخضراء بسفح الجبل ذى القمة البيضاء . إذا رجال مدججون بالسلاح . . .

شهرزاد — (باسمة) أعرف . . أعرف . ولقد قاومتهم أنت مقاومة الهزبر !

توفيق — فعلت ماالستطعت ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة .

شهرزاد — (تخفى ضحكها) صدقت ، أيها الشجاع !

توفيق — وبعد يا سيدتى ، متى يخلى سبيلى ؟

شهرزاد — (فى دلال) أبهذه السرعة مللتنا ؟

توفيق — أنت حقاً على غاية اللطف والظرف والجمال ولكن . . .

شهرزاد — ولكن ؟

توفيق — روحى الآن ولا شك بين يديك الصغيرتين . وأنت الآن صاحبة الأمر والنهى . فمرى رجالك بأطلاق سراحى وخذوا مالى وثيابى حلالا لكم .

شهرزاد — (فى تقطيب) ما ظنك بى ؟ إنك فيما أرى تجهل من أنا .

توفيق — لا مع الأسف . لست أستطيع أن أجهلك . إن معرفتك لا تحتاج إلى فراسة ولا إلى فطنة .

شهرزاد (فى ارتياب) من أنا ؟

توفيق — انت ولا فخر زعيمة الخطافين .

شهرزاد — (فى خيبة مرة) انا ؟ (كالمخاطبة لنفسها) أنا التى حسبت أنه عرفنى ! صدق الدكتور . إنه ليس ساذجاً فحسب . إنه أبله . !

توفيق — (يرى تغيرها) ماذا جرى ؟ أترينى غلطت يا سيدتى ؟

شهرزاد — لا .

توفيق — أرى وجهك قد تغير .

شهرزاد — يالخيبة الأمل !

توفيق — نعم . كنتم تحسبون انكم وقعتم على موسر من اصحاب الملايين الأمريكان المصطافين . ولكن رجالك ياسيدتى قصار النظر إذ اختطفوا لك اديباً ، عامر الجيب لا بأوراق البنك بل ، بأوراق النثر !

شهرزاد — (ترفع رأسها سريعاً فى امل) وهل أنت حقا عامر الجيب بالنثر؟

توفيق — لا نثر ولا شعر . تركت كل هذا فى مصر وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال (بعد لحظة) وأنت ما يعنيك من امر الشعر والنثر ؟

شهرزاد — هذا كل ما يعنينى . لقد اختطفتك لنثرك وفكرك .

توفيق — (ساخراً) شىء جميل !

شهرزاد — إن شؤون الفكر والعقل والخيال هى كل حياتى .

توفيق — أنت ، يا من تخطفين الناس ليلا من الطرقات ! !

شهرزاد — إنى لا أخطف إلا الموهوبين أمثالك .

توفيق — (فى سخرية) أستغفر الله !

شهرزاد — ألا تصدق ؟ آه لو عرفت حقيقتى لصدقتنى من ساعتك ولكنك نائم كاليقظان ويقظان كالنائم . تمر بك الحقائق كأنها أشباح ، وترى الأشباح كأنها حقائق . أأنت واثق بأنك لم ترنى من قبل ؟

توفيق — واثق انك لم تشرفينى بالخطف قبل الآن !

شهرزاد — انظر إلى عينى الصافيتين !

توفيق — إنهما خضراوان كعيون القطط والسنانير !

شهرزاد — لقد شغفت بهما أنت يوما ، وكتبت عنى وعنهما كتابا .

توفيق — أنا ؟ أين ومتى ؟ حاشا ان اكتب كتابا عن امرأة أو عيون امرأة .

شهرزاد — إنى امرأة لا ككل النساء .

توفيق ــ حقيقة . لم أر مثل جمالك قط . ولو كنت ممثلة ، لما صلحت امرأة فى الوجود غيرك لتمثيل ذلك الدور العسير فى روايتى العسيرة . ولكنك امرأة على الرغم من جمالها لا يعنينى الآن من أمرها شىء . فما جئت الجبل أطلب المغامرات ، إنما أطلب الراحة والسكينة والصفاء .

شهرزاد ــ ألا أستطيع أن أدخل حياتك فأثير سا كنها ؟

توفيق ــ وما حظك من إقلاق راحتى وصفوى ؟

شهرزاد ــ قد أوحى إليك بشىء .

توفيق ــ أى شىء ؟

شهرزاد ــ قصة مثلا أو كتاب .

توفيق ــ هل أغراك أحد بى ؟

شهرزاد ــ كلا . (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين ؟

توفيق ــ إنه يقيم معى فى فندق « مون جولى » بسفح الجبل . ما ذا جرى له ؟ أخطف هو أيضاً ؟

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) كلا . إنه لا يحوجنا إلى الخطف . إنى إذا طلبته فى أى حين أقبل علىّ دائماً دون إبطاء .

توفيق — وكيف عرفته ؟

شهرزاد — إنى أقرأ كتاباته كلها منذ أن حمل القلم ، وأعرف كتبه « الأيام » و « فى الصيف » و « على هامش السيرة » كما أعرف نفسى .

توفيق — أمرك بدأ يدهشنى . من أنت ! أطالبة من طالبات السوربون ؟

شهرزاد — أنا ، . ألا تعرف من أنا ؟

توفيق — قلت لكِ لم أنل بعد هذا الشرف .

شهرزاد — ألم تسمع بامرأة تدعى « شهرزاد » ؟

توفيق — سمعت بها حقيقة .

شهرزاد — سمعت بها فقط ! ! يا لك من . . كيف أصفك !

توفيق — (يطيل النظر إلى شهر زاد) أنت ! ؟

شهرزاد — عرفتنى حقاً هذه المرة ؟

توفيق — (كالنائم اليقظان) هى ! !

شهرزاد — (فى صوت كالهمس) نعم . أما كنت تتوقع رؤيتى هنا ؟

توفيق — هى .. فى جبال سافوا العليا . ! أهذا ممكن ؟ أهذا معقول ؟ !

شهرزاد — إنك تعرف أنها تستطيع أن تكون فى كل مكان .

توفيق — (كالمخاطب لنفسه) . « صورتها كانت تتبعك فى كل مكان . . »

شهرزاد — نعم ، هكذا قال شهريار عنى يوماً لقمر .

توفيق — عجباً ! أنت إذن هى التى أوحت إلىّ بكتابى . أنت هى التى خرجت من عقلى وفكرى ! ومع ذلك يا شهرزاد . . تخطفيننى اليوم وتحبسيننى بين جدران هذا القصر الكبير ؟ !

شهرزاد — (باسمة) وأنت أيضاً ، ألم تخطفنى وتحبسنى بين دفتى كتاب من القطع الكبير !؟

توفيق — آه تنتقمين إذن ! ولكنك قد أسرفت وغلوت . فأنت قد خطفتنى وحبستنى فى الواقع والحقيقة

شهر زاد — (فى ابتسامة غامضة) الحقيقة !

توفيق — هذا ما لا شك عندى فيه .

شهرزاد — دع الحقيقة فى مكانها هادئة .

توفيق — (ينظر إليها مليا) يا للعجب ! نعم إنى قد عرفت الآن ابتسامتك الغامضة ! أنت هى شهرزاد بلا مراء ، كما بدت فى مرآة فكرى لأول مرة . أتأذنين لى فى لثم يدك طويلا . ؟

شهرزاد — (باسمة وهى تمد يدها) طويلا ! إنكم معشر الأدباء سواء !

توفيق — هل أطال أديب غيرى لثم يدك ؟

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) البارحة فى منتصف الليل ! . .

توفيق ــ ما ذا تقولين ؟

شهرزاد ــ (تلتفت إليه فجأة) اسمع منى ! أتعرف لما ذا طلبتك ؟

توفيق ــ لا .

شهرزاد ــ آه ! . ما أحوجنى اليوم إلى سمير يبقى إلى جانبى يزيل عنى السأم !

توفيق ــ أنا ؟ !

شهر زاد ــ ولم لا ؟

توفيق ــ أو لم تجدى فى هذا الخلق من يصلح غيرى لهذا المنصب الخطير !

شهرزاد ــ ليس فى الوجود غيرك . لقد دلنى عليك صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه .

توفيق ــ أهو صديق لك أم لى ؟

شهرزاد ــ لكلينا .

توفيق ــ إن صدقت فطنتى وفراستى فهو طه حسين، اسمعى أيتها الجميلة ! لقد لعب بك هـذا الصديق الذى

تثقين بحكمه وذوقه ورأيه . فأنا آخر من يصلح لمسامرة الملكات الضجرات فى ليالى الصيف المقمرات !

شهرزاد — سنرى .

توفيق — المسألة لا تحتاج إلى تجربة . إنى رجل جئت من مصر طلباً للكسل وبحثاً عن راحة البال .

شهرزاد — سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة !

توفيق — سيدتى العزيزة ! لو سألتك أمنية غالية .

شهرزاد — كل أمنية لك مجابة مهما غلت .

توفيق — أريد أن تتركينى أتثاءب .

شهرزاد — إلا هذه . أنت ما خلقت لهذا .

توفيق — آه ! كم أضيق الآن ذرعاً بهذا الصنف من النساء !

شهرزاد — أتسمع نصحى ؟ اذعن لما كتب عليك . ولا تكن عنيداً كشهريار فى أول أمره . انك باق إلى جانبى تسامرنى رضيت أو أبيت . فلا تضطرنى إلى العنف والإكراه .

توفيق — العنف ! كلا ، لا لزوم للعنف بعد الآن . كفى ما حصل من خطف وقبض وسجن . أسامرك وأمرى لله ! (كالمخاطب لنفسه) ولكن الله يتولى جزاءك يامن أغريت بى وحرضت علىّ .

شهرزاد — (تستلقى على الوسائد وتضع رأسها فى راحتيها) الآن حدثنى عن أثر جبال الجليد فى نفسك ، وعن الغابات الخضراء . وعن ثمر البندق . هل حقاً استكشفته وأكلته بقشره ! !

توفيق — يحدثك عن كل هذا الذى أخبرك به . فهو قدير على وصف ذلك بالأبداع الذى وصف به جبال « الفوج » فى كتابه « فى الصيف » وأنت تعرفينه كما تعرفين نفسك !

شهرزاد — ولكنى أريد أن أسمع منك أنت ما حدث لك .

توفيق — ماذا حدث لى ؟ لقد نسيت .

شهرزاد — ألا تريد أن تقص علىّ ! ! .

توفيق — (فجأة) صه ! قد خطرت لى فكرة نورانية . أتريدين قتل الضجر ؟ عندى له دواء ناجع . هلمى بنا .

شهرزاد — إلى أين ؟

توفيق — إلى البحيرة . هذه « سنتارتى » وآتى لك « بسنتارة » ثم نذهب معاً نصطاد سمكا . . من سمك « الترويت » الذى تعج به البحيرة والجداول المنحدرة من الجبال .

شهرزاد — أنا أصطاد سمكا ؟ !

توفيق — وما الضرر ؟

شهرزاد — أهذا رأى تراه لى ؟ ! يالك من .... ماذا أقول لك ؟

توفيق — إنى لا أرى فى ذلك سبة . لقد كان أبوك صياداً .

شهرزاد — أبى ؟ !

توفيق ــ لقد قرأت ذلك بعينى فى نسخ عدة من كتاب ألف ليلة وليلة .

شهرزاد ــ إنك قد جاوزت حدك يا هذا .

توفيق ــ صدقت . وإنى لا أستحق منك الآن غير الطرد خارج هذا القصر .

شهرزاد ــ إنى لست بلهاء فأفعل ذلك. إنك باق هنا كى تسامرنى . . هلم . ! سامرنى !

توفيق ــ لا حول ولا قوة إلا بالله !

شهرزاد ــ إن كنت لا تجد من الحقائق معيناً فأين الخيال ! هل نضب خيالك هكذا وشيكا ؟ !

توفيق ــ يظهر لى أنه نضب .

شهرزاد ــ واخجلاه ! هذا مؤلف وروائى وأديب يعجز عن مسامرتى ليلة واحدة . وأنا التى سامرت ملكا جاهلا غشوماً الف ليلة وليلة !

توفيق ــ كلنا نعرف لك هذه العبقرية .

شهرزاد — كنت أحسبك تستطيع أن تستنبط لى شيئاً يسحر لبى !

توفيق — إنى أستطيع شيئاً .

شهرزاد — ما هو ؟

توفيق — أستطيع أن أصغى إليك . تكلمى أنت واستنبطى ما شئت وأنا أصغى .

شهرزاد — هذا بديع ! أخطفتك وجئت بك إلى هنا كى أسامرك أنا ؟ !

توفيق — إنك خلقت كى تتكلمى أنت .

شهرزاد — ماذا تقول ؟

توفيق — أقول إن كل عملك فى الوجود أن تتكلمى فيصغى إليك الناس . لا كل الناس . بل المجدودون والموهوبون !

شهرزاد — صدق طه حسين . إنك معقد ! بل أكثر من معقد . إنك خبيث !

توفيق — وطه حسين ! أهو البراءة بعينها؟ألا تعرفين أنه مكر بك مكراً جميلا .

شهرزاد — كيف ذلك ؟

توفيق — إنه هو الذى كان يستطيع أن يسامرك أبدع المسامرة . ولكنه مشغول ليله ونهاره « بالمتنبى » ولقد أغراك بى ليفلت هو ويخلص إلى شاعره . وهكذا آثر « المتنبى » على « شهرزاد »

شهرزاد — أهو فعل هذا ؟

توفيق — (منتصراً) عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو يجلس حيناً بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة فى حديقة الفندق ، وأحياناً يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ له . ولا جناح ولا تثريب فى خطفهما معاً .

شهرزاد

سمعت شهرزاد من أسيرها هذا الاغراء فرفعت كتفيها الجميلتين رفعاً رفقاً أنيقاً لايكاد يحس وقالت فى سخرية لم يلحظها الأسير الأديب رأى موفق ». ثم تناولت قضيباً دقيقاً من العاج فمست به اناء أجوف من الفضة سمع له صوت فيه عذوبة وخفاء ، وانفرجت له أستار جانبيه من القطيفة المقصبة ، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال وصورت

وجوههن أحسن تصوير ، تقدمن فى خطى متزنة متقاربة حتى إذا دنون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحناء . ثم استوين فأحسن الاستواء والأسير قائم ذاهل يردد طرفه الحائر بينهن وبين سيدتهن لا يفهم شيئاً ولا يقول شيئاً ، وشهرزاد تنظر اليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقول له فى صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة الملك والسلطان معاً « لا يزغ بصرك ياسيدى ولا تسرع إليك الفتنة فأنك لم تتجاوز بعد أول الطريق » . ويختلط الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلد واصطنع من وقار ، ويسوؤه أن قد نفذت شهرزاد إلى نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد الذى استقر بين الوسائد الحريرية ، والذى كان يحاوره منذ حين ، وهذا الجمال الرائع الذى انفرجت عنه الأستار ، ويهم أن يجمجم معتذراً ، ولكن شهر زاد تخفف عليه المؤونة وتضع عنه الوزر ، وتتجه إلى هؤلاء الفتيات الحسان قائلة : خذن هذا السيد فأصلحن من أمره وهيئته

لمسامرتى ، ثم عدن به إلى إذا صار لها أهلا .

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه صوابه ، فيسأل بماذا تأمرين يا سيدتى ! وماذا تريدين أن يصنع بى ! وإلى من تسلمينى !

فتجيبه شهر زاد مبتسمة فى شىء من القسوة، ألم تنظر إلى المرآة ؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ؟ أتظن أنك على هذه الحال الرثة تصلح لمسامرة الملوك ؟.

قال الأسير : سيدتي إني لا أصلح لشىء ولم أطلب شيئاً إلا أن أرد إلى حيث كنت وأعود حراً طلقاً أطوف فى المسالك والطرقات حول سالنش وألتمس غديراً أصطاد فيه السمك . قالت ولكن الله أراد لك أن تمسى لى سميراً . قال وأنت تسلمينى إلى هؤلاء الفتيات الحسان فماذا تريدين أن يصنعن بى ؟. قالت : يصلحن من أمرك ويزلن عنك ماركبك من الغبار وماعلاك من شعث، يحرين المشط والمقص على رأسك ، وينزهن الموسى فى لحيتك هذه ،ويأخذن من أظافرك ويبدلنك من ثياب المدنية

هذه ثياب القصر، ثم يردودنك إلى سمحاً طلقاً، لا تقتحمك العين ولا يتجافى الطرف عن النظر إليك .

قال مرتاعاً : وهن اللاتى سيصنعن بى هذا كله؟

قالت : وما يسوءك من ذلك.

قال ما أعرف والله ما يسوءني مما يسرنى ، ولكنى أتوقع يوماً كيوم بفنوس .

قالت : فى قصة أناتول فرانس لقد ألهمته هذه القصة فى ساعة من ساعات فراغه وفى لحظة من لحظات عينى . ولكن لا بأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا ..

قال مسرعا : عفواً يا سيدتي

وأشارت هى إلى الفتيات أن أسرعن، فأحطن به ودفعنه دفعاً يسيراً إلى ماوراء الأستار

وخلت شهر زاد إلى نفسها فأخذت قلمها وكتبت إلى هذا الكتاب الذى ألفيته من الغد على مائدة صاحبى لم يحمله إلى ساعى البريد ولم يعرف صاحبى كما لم أعرف كيف وصل إلينا

سيدى :

«لك منى الشكر المضاعف والتحية الخالصة ، لقد وجدت فى زيارتك إياى راحة وترفيهاً على ، ولقد استقبلت بعد انصرافك عنى نوماً هادئاً مطمئناً ، ولقد نصحت لى فصدقت النصح ، وأشرت على فأحسنت المشورة ، فقد خطف أصحابى صديقك الأديب وحملوه إلى على الحال التى كان عليها فى طريق من طرق سالنش أشعث أغبر مهملا قد اختلط أمره وهو يحسب أن الرشد لم يفارقه ، وامتلأ قلبه روعاً ورعباً وهو يظن أنه أشجع الناس

حملوه إلىّ وقد اتخذ معطفه ترساً يتقى به ما أقبل عليه من شر ، ولم يخطر له أن يقاوم المعتدين عليه حتى بعصا الصيد هذه التى كان يهزها فى يده كما يهز الفارس العربى رمحه السمهرى . ولم أكد أراه وأسمع له حتى استيقنت أنه كما أنبأتنى ساذج برىء . زعم أنه شجاع وأنه ذاد عن نفسه ما استطاع ولم يقدر أن الذين حملوه إلى قد أنبأونى بما لقوا

من مقاومته وما بلوا من حسن دفاعه عن نفسه . ولكنى لم أكد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبينت أنه كما أنبأتنى عنه معقد شديد التعقيد، فقد أخذ يداورنى ويماكرنى ويلقى إلى جملا ذات وجهين وأخرى ذات أوجه . راعه أنى اتخذته سميراً فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التى يتهالك عليها كثير من الأدباء وتتقطع دونها أعناق كثير من أصحاب المواهب والنبوغ . فسلك إلى هذا التخلص طرقا أيسر ماتوصف به أنها يسيرة كل اليسر ملتوية كل الالتواء . ألم يطلب إلى أن آذن له فى أن يتثاءب ؟ أرأيت أديباً يتثاءب فى حضرة شهرزاد؟ ألم يعرض على أن أصحبه إلى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معاً ؟.. فلما لفته إلى أن شهرزاد لا ينبغى لها أن تصطاد السمك لم يخف من أن يذكرنى بأن أبي كان صياداً . إنه لساذج كل السذاجة ، معقد كل التعقيد . لقد كان يدفعه تعقيده إلى أن يمكر بي وينثر لى الشباك والأشراك ، ولقد كانت سذاجته تخيل إلى أنى قد انخدعت لمكره ووقعت فى حبائله . فقد كان يفهم كلامى

على وجهه ولا يقدر أنى أستطيع أن ألقى مكرا بمكر، وعبثاً بعبث وخداعا بخداع .له الله، إنه يظن أن المكر وقف عليه، وأن الدهاء لم يخلق الا له. إنه قد فهم كيد النساء فظن أنه أبلغ كيداً من النساء، ولكنى ملكت أمرى أكثر مما ملك أمره، فخيلت اليه وخيل هو إلى نفسه أنى لم أنكر مما قال شيئا، وأظهرت له يأسى منه وخيبة أملى فيه وفى قدرته على أن يسامرنى ويطرد عنى الحرج والضيق. فسره ذلك وأرضاه، وظن أن انتصاره محقق وأن الافراج عنه قريب، ولست أريد أن أغريك به ولا أن أفسد ما بينك وبينه من الود، فأنا حريصة على أن تصلح الأمور أبدا بينكما، ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك فانى لم أصدق ما قال فيك، ولم أنخدع بكيده لك، ولكنى أريد أن أؤكد لك أنه ساذج حقاً. فقد زعم لى وظن أنى سأصدق مازعم زعم لى أنك إنما رغبتنى فى مسامرته لتفلت أنت من هذه المسامرة وتخلو إلى شاعرك الذى أنت مشغول به، والذى تؤثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهرزاد.

وقد رأى منى ماأقنعه باني مصدقة محنقة مفكرة فى الانتقام فتجاوز الكيد إلى الاغراء ، وعرض على أن أخطفك كما خطفته ، ويسر على أمر خطفك من حديقة الفندق تحت شجرة الزيزفون ، أو من هـــذه الغرفة التى تخلو فيها مع صاحبك إلى شاعرك هذا الذى يشغلك فى هذه الأيام . وقد أظهرت له قبول رأيه ، فلا تسل عما ملأ قلبه وظهر على وجهه من الغبطة والبشر ، ولكن ابتهاجه لم يطل ، فما أسرع مادعوت ثلاثاً من جوارى فأمرتهن أن يأخذنه فيفعلن به الأفاعيل . ثم يردنه إلى وقد صار أهلا لمسامرتى . ولو رأيته بين أيدى هؤلاء الفتيات لرأيت عجبا ، ولو سمعته يتحدث اليهن لسمعت عجبا ، ولكنى لن أقص عليك شيئاً من ذلك وإنما أدع له إنباءك به ، فان له فى هذا فناً لا يخلو من فكاهة ترضيك ، وأنت ستراه من غير شك ، وستراه عندى ، فما أظنك تكره زيارتي ، وما أصدق أن المتنبى يشغلك عنى . وهب المتنبى قادراً على أن يصرفك عن شهرزاد فان صاحبك فى حاجة اليك . فأمره أشد مما تظن

خطرا . بل هو أشد خطراً مما كنت أقدر ومما كنت أريد، لقد كنت ألتمس سميرا فدللتنى عليه ، ولكن قصرى لم يكد يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون عليه . هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقاً فى هذه القصة التى نسجها حول شهرزاد ، والذين بعد عهدهم بى وانقطعت أخبارهم عنى حتى أنسيتهم أو كدت أنساهم ،وحتى نسونى أو كادوا ينسوننى ، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه لسلطانى ، ولست أدرى كيف عرفوا ذلك .فأقبلوا جميعاً ولست أدرى من أين أقبلوا وكلهم يريد أن يخاصمه وكلهم يريد أن يقتص منه ، لأنه صورهم على غير ما يحبون وأنطقهم بما لا يرضون ، وأجرى على أيديهم من الأعمال وأدار فى رؤوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم ببال.وما ظنك بشهريار الذى فارقنى منذ أحقاب وأحقاب،وقد عاد إلى اليوم يحاورنى ويجادلنى فى هذا الرجل الذى صوره كما تعرف وجعله كما يقول مثلا للغباء الذى يزعم الذكاء،والغفلة التى تتدعى الفطنة ، والضعف الذى يتكلف القوة، ومثلا لأكثر من

ذلك،وهو يلومني ويغريني ويحرضني،ويسألني كيف أعفو عن هذا الذي اتهمني فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تتهم فيه ، فكيف بملكة كريمة مثلى متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان . وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدراً ولا أدار في خلده شيئاً يستحي أن يظهره ، والعبد ـ وويل لصاحبك من العبد ـ إنه ثائر فائر ، إنه مرغ مزبد ، إنه مبرق مرعد ، إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره ، إنه لا يطيق التفكير في العفو عن هذا الرجل الذي جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان . وهو يغريني ويحرضني ويريد أن يضرم النار في قلبي لولا أن قلبي أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألني كيف أترك الحياة لرجل صورني في هذه الضعة وجعلني أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنيء ، والساحر يقسم ما سحر ، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة ، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته إثماً قط ، حتى زاهدة

تقسم ما عرفت سراً ولا سئلت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته . وكل هؤلاء مغيظ محنق يلح على فى أن أنتقم له وأنتقم لنفسى من صديقك البائس المسكين ، ومع أنى كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه ، فقد أدركتنى الرحمة له والرفق به حين رأيت هؤلاء الناس ، بل حين رأيت هذه الأشباح كلها تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتعرق عظمه عرقاً ، أسرع إلى زيارتي يا سيدى فلعلك تعينني على حماية هذا الصديق المسكين .

على أنى لا أريد أن يظن بى صاحبك أنى خطفتك كما خطفته، فأنت أحب إلى وأوثق عندى من أن تخطف ، ولكنى أريد أن تنبئنى باستعدادك لزيارتى . فاكتب إلى إن كنت فى هذه الزيارة راغباً ولا تكلف نفسك محاولة إرسال الكتاب إلى . ولكن إذا أتممت إملاءه فليضعه صاحبك على المائدة فهذا يكفى . وأنا مظهرة أسيرى

البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعاً لايخطفون، و أن منهم من يزورون شهرزاد عن شوق اليها ورغبة فى زيارتها، وأن المتنبى مهما يشغلك فلن يصرفك عنى. وإلى أن يصل إلى كتابك أرجو أن تتقبل ياسيدى تحية التى تنتظرك مشوقة اليك »

إلى شهرزاد

ولست أدرى كيف أصف لك أيها القارىء العزيز ماأحدث هذا الكتاب فى نفسى من الأثر ، فأناصادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى بهجة وسروراً ، وأناصادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى جزعا وفزعا ، وأناصادق كذلك إن أنبأتك بانه أثار فى نفسى حزناً يسيرا .فأما البهجة والسرور فلأنى كنت أتحرق شوقا إلى لقاء شهرزاد . وأما الجزع والفزع فلأنى كنت أرتعد إشفاقا على توفيق الحكيم أن تتقسمه

هذه الأشباح فيذهب شهريار برأسه،ويذهب كل واحد منها بشلو من أشلائه . وأنا الذى دل عليه شهرزاد فعرضه لهذا الخطر المنكر،وللرجل أهله وأصدقاؤه فى مصر قد فارقهم منهوكا ضعيفاً ليعود اليهم قوياً أيدا . وهو بعد هذا كله صديق لى حبيب إلى،أوثر له العافية وأضن به على المكروه،وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التى ترضى وتسخط وتسر وتسوء . وأما الحزن اليسير فلموجدة أحسستها حين رأيت صديقاً يكيد لصديقه وأديباً يتجنى على أديب . ولست أنكر أنى قد مكرت به شيئاً حين أغريت به شهرزاد،ولكنى لم أرد به إلا خيرا لأني أتحت له لقاء تلك التى جعلته رجلا معروفا . فما كنت أقدر أنه سيمكر بى ويكيد لى على هذا النحو.أما صاحبي فلم يجد إلا غبطة وفرحا لأنه سرى شهرزاد وقصر شهرزاد . وكان يقول لى هون عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما ، ومتى رأيت الأشباح تتقسم بينها أجسام الأحياء؟ وهل تستطيع هذه الأشباح أن تثبت لكيد شهرزاد

ومكرك أنت إذا اجتمعتما على حماية توفيق؟ ومع ذلك فأنك تحفظ كثيراً من هذه الصيغ السريانية والكلدانية التى تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الآهل بها، وترد هذا المكان آمنا كله لاخوف على أهله ولا هم يحزنون .

وكان يقول لى لاتجد على توفيق ولا تسىء به الظن، فقد ضاقت عليه الحيل وأخذت عليه الطرق فاتخذ الوقيعة فيك عند شهرزاد وسيلة إلى الافلات من سجن شهرزاد. وأنت تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع، ومن طبيعة الأدباء أن يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم لبعض، والأمر منته بينكما إلى مودة لاتشوبها ضغينة ولا حفيظة . فخلص قلبك من الحزن والخوف، وخل بينه وبين الفرح بلقاء شهرزاد وأمل على الكتاب الذى تنتظره منك .

ثم يبسط الصحف أمامه ويأخذ القلم ويعفينى من هذه الحركة التى ألفتها كلما هممت بالاملاء ، وهى التماس السجاير ، فيقدم إلى السيجارة ويشعلها ويقول ماتعود أن

يقول « نعم » فأملى عليه « أدركنى كتابك ياسيدتى وقد بلغ منى الجهد والاعياء أقصى مايستطيعان أن يبلغا من رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار . لو تعلمين كيف أنفقت الساعات واللحظات منذ ودعتك لما احتجت إلى أن تنبئينى بأنك لاتقبلين فىّ سعاية ولا تستجيبين فىّ لكيد. أتعرفين شيئاً أروع من الليل العريض يجثم على الفضاء العريض منيخاً بكلكله كما يقول شاعرنا القديم . وقد أخذت السماء ترميه من أشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنفذ فيه، ولكنها لاتنال منه شيئاً ولا تحدث فيه أثرا ، وانما هو ثابت لاينتقل ومستقر لايزول. أما أنا فقد عرفت روعة هذا الليل ورهبته أمس حين استقبلت المساء على غير موعد منك. ولكنى مملوء القلب أملا. ألا يتقدم الليل حتى تأتينى رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التى لن أنساها. ولم يكن صاحبى فيما أعلم أقل انتظاراً منى لهذه المفاجأة الحلوة ولا أقل حرصاً منى على هذه الدعوة الكريمة . إنه لم يتحدث اليك ولكنه رآك واستمع لك، وهذا يكفيه

ليملأ قلبه شوقا إلى رؤيتك وكلفا بحديثك. لقد استقبلنا الليل ياسيدتى وإن قلبينا ليضطربان بهذا الأمل ويخفقان بهذه الأمنية، ولقد حاولنا أن نقرأ الصحف وننظر فى الكتب، فجعل صاحبى يقرأ مالا يرى وجعلت لاأسمع لما كان يقول، تركته تائهاً فى صحفه وكتبه وتركنى ذاهباً مع الأمل والخيال. كلانا يظهر لصاحبه أنه معنى به ملتفت اليه، وكلانا يخفى على صاحبه أن عقله قد فارقه وأن لبه أسير هناك فى ذلك القصر الذى رأيناه وأقمنا فيه وتحدثنا إلى أهله وسمعنا منهم، ولكننا لا نعرف اليه طريقا ولا نستطيع اليه سعيا. وانتصف الليل فأذا الأمل كاذب، وإذا الرجاء خائب، وإذا الحسرة لاذعة، وإذا هى تبدى نفسها، وإذا كل منا يرى صاحبه كما هو، وإذا نحن نفترق لا لنأوى إلى المضاجع، ولكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء وهذا النسيم المضطرب فى الجو.

نعم ياسيدتى لقد تركت صاحبى لا لأستريح ولكن لأخلو إلى خيالك وإلى ذكرك حين أعيتنى الخلوة إلى

شخصك . فأنفقت ما بقى من الليل جالساً فى شرفة تخرج عن غرفتى شيئاً أستقبل الليـــل وآنس إلى صمته الرهيب وأستمتع بهذه الموسيقى الخافتة التى تبعثها فيه أحياء الغابة والحقول. أو أذعر من حين إلى حين لهـذه الدقات التى تضطرب فى الجو تحسب المسكينة أنها تقيد الليل وتقسمه أجزاء وتنبىء بمـا مضى منه وتتنبأ بمـا بقى ، وتتأذن بمـا بيننا وبين الفجر من آمال . وانها لتفعل هذا كله بالقياس إلى الذين أقفرت قلوبهم من الحب وبرئت نفوسهم من الشوق ، فأما الذين رأوا شهرزاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل لا ينقضى ونهارهم متصل لا ينقضى أيضاً؛ لأن ليلهم ونهارهم عليهم سواء ، كلاهما مظلم وكلاهما جامد وكلاهما طويل ثقيل . كأن هؤلاء المحبين لا يعرفون الشمس إلا حين يشرق لهم وجه شهرزاد ولا يعرفون الأمن والهدوء والدعة والنعيم إلا حين يغمرهم جمـال شهرزاد .

لقد صدق توفيق الحكيم يا سيدتى فأنا فى هـذه الأيام مشغول بالمتنبى ولكنى مشغول به عن كل شىء وعن كل

إنسان إلا أنت . فان أمنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة لليله ونهاره تشبه أمنيتى الملحـــة على المضنية لى المنغصة لليلى ونهارى ، ولكنى لا أتمنى كما كان يتمنى ملكا وسلطانا ، ولا أشتهى كما كان يشتهى ثروة وغنى . وما أتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب ، وأى ملك يشبه الخضوع لك أو يعدل الاذعان لأمرك ، وأى ثروة تشبه الشعور بأنى قريب منك ليس بينى وبين الغنى الذى يمتع القلب والعقل إلا أن أتجه اليك فأسمع منك أو أحس قربك منى ؟

رحم الله المتنبى يا سيدتى فقد أعاننى على احتمال الشوق ويسر على بعض الشىء ثقل الليل لأنه ترجم عما كنت أجد فى هذه الابيات التى تغنى بها ذات ليلة فى أنطاكية وتغنت نفسى بها الليلة البارحة فى سالنش ، ولولا بقية من عقل تأبين أن تستأثرى به كله رحمة بمحبيك ، لأطاع لسانى نفسى ولاندفعت مغنيا هذه الأبيات يشق صوتى بها سكون الليل ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولى .

أتذكرين هذه الأبيات ياسيدتى ، وهل تنسين شيئاً ؟ وهل ينبغى لك أن تنسى شيئاً ؟ استمعى لها فانها لا تصور المتنبى وحده وإنما تصور كل محزون كئيب قد حيل بينه وبين مايتمنى وأكره مع ذلك على أن يحيا فيسهر الليل ويضطرب فى النهار !

أعزُمى طالَ هذا الليلُ فانظر
أمنكَ الصبحُ يفرق أن يؤوبا
كأنّ الفجرَ حبّ مُستزار
يُراعى من دُجنتــــه رقيبا
كأنّ نجومَهُ حلى عليــــه
وقد حـذيتْ قوائمه الجَبوبا
كأن الجوَّ قاسى ما أقاسى
فصار سوادُه فيــــه شحوبا
كأنّ دُجاهُ يجذبها سُهادى
فليس تَغيبُ إلا أن يغيبا

أقلبُ فيـــه أجفانى كأنى

أعـدُّ به على الدهر الذنوبا

وما ليـــل بأطولَ من نهار

يَظَـلّ بلحظ حسادى مشوبا

بهذه الأبيات تغنى ضميرى بقية الليل ولـكنه كان يضع الشوق موضع العزم فان فراقك لم يبق لى عزماً ولا حزماً . ثم أشار الفجر بأصبعه الوردية التى أريتها أنت يا سيدتى لضرير اليونان منـذ ثلاثين قرناً فاذا الليل الجاثم ينهزم ، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شىء وفى كل نفس ولـكنى أظل محروماً ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة . وأنا أحمّـل الطير المستيقظة التى تغدو من وكناتها فرحة مرحة يسكرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس رسائلى إليك لعل بعضها أن يمر بقصرك المسحور فيرسل مِن فيه نغمة تحمل إليك بعض ما أجد من لوعة وما أقاسى

من ألم. وأنا أهيم مع صاحبي وجه النهار فى الجبال والربى أسأل عن أخبارك طير الغاب وما يعبث بأغصان الشجر من نسيم ؛ وأسأل عن أخبارك هذه الغدران الضئيلة الصافية التى تنحدر من الجبال متعطفة متلوية تناجى الصخور وتناغى الحصى لعل فى مناجاتها ومناغاتها شيئاً من حديثك يرد إلى بعض ما فقدت من أمن وهدوء.

ولم تحمل إلى الطير نبأ ولم يبلغنى النسيم خبراً ولم تَرِدَّ إلى مناجاةُ الغدران ومناغاتها أمناً ولا هدوءاً فأعود قانطاً مستيئساً ، ولكنى أجد كتابك ، فتبينى الآن أمشغول أنا عنك بالمتنبى ؟ أكنت زاهداً فى جوارك حين ودعتك ، أكنت راغباً عنك حين عدت إلى هذا الفندق الذى أضيق به الآن أشد الضيق .

لبيك ياسيدتى ، لبيك دعوة كريمة وطاعة سريعة لا تنتظر إلا أن تأمرى بأن أشخص إليك . لست مشغولا عنك بشىء ولا بأحد ، ولست فارغا لأتحدث عن كيد توفيق لى عندك فليس يعنينى إلا أن أبلغ رضاك عنى

وأضمن ثقتك بى . ومع ذلك الله يعلم ما أردت بالصديق الأديب شراً ومتى كان القرب منك شراً . إنما آثرته على نفسى حين دللتك عليه وأنبأتك به . وآثرتك أنت على نفسى ياسيدتى لأن توفيقاً كان يسلينى ويلهينى ويفتح لى أبواباً من الرضى والبهجة ويعرض على فنوناً من العبث والضحك ما كنت لأفرط فيها لولا انى أحسست حاجتك إليه .

لا تيأسى منه يا سيدتى فتجدين عنده ما تريدين ، آمنيه وهدئي روعه ، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيتها واستمعى لحديثه وأجيبيه جادة حيناً وهازلة حيناً وانتظرى نتيجة ذلك فسترضين . لقد طلب إليك أن تصحبيه إلى الغدير لتصيدى السمك معه ، فاصحبيه يا سيدتى وأظهرى أنك تريدين الصيد فستضحكين كثيراً قبل أن تبلغى الغدير حين ترينه فارساً مغواراً وبطلا كميا قد ملأه الفخر والاعجاب والتيه بما يحمل من اداة الصيد وستضحكين كما ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقى أداة صيده فى الماء ثم يحس

حركتها ثم يحس ثقلها ثم يستيقن أنه قد اصطاد ثم يجذب ويجذب ويجهد نفسه فى الجذب مستيقناً يا سيدتى أنه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز التى سحرت بها عقل شهريار ، ثم يخرج أداة صيده من الماء إلا أنه قد فقد السنارة .

ستضحكين يا سيدتى حين ترينه يعاود هذا الجهاد مرة ومرة ، ثم يرجع معك وقد صفرت يده من الصيد واضطربت نفسه بين الرضى بما جاهد والسخط على ما أخفق ، فهو يرثى لنفسه وهو يضحك من نفسه ، وهو يحملك على أن ترثى له وتضحكى منه . نعم وستغرقين فى الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد أن عجز عن صيد السمك . نعم يصطاد نفسه يا سيدتى ، لا تنكرى ولا تدهشى ، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم . اختلط فى خيطه وارتبك ولم يعرف لنفسه مذهباً فاستغاث أنجدونى فقد اصطدت نفسى ، وأقبل أصحابنا عليه فلم يخلصوه من سنارته إلا بعد جهد . ثم خافوا عليه أن

يصطاد نفسه مرة أخرى فجردوه من سلاحه الخطر ولفوه فى بعض الورق وقالوا له احتفظ به ولا تخرجه إلا عند الغدير، ولكنه أضاع سلاحه يا سيدتى ، وعاد أعزل إلا من هذه العصى التى لا تنفع ولا تضر .

وأنا قاس حقاً أتندر بهذا الصديق البائس وقد أحاط به ما وصفت من خطر وتألبت عليه هذه الأشباح العاتية تريد أن تمحقه محقاً وتسحقه سحقاً . كلا كلا لن ترضى نفسك عن هذا ياسيدتى ، ولن تسمحى به، ولن تأذنى فيه ... من يسليك إذن ومن يسلينى ومن يسلى قراء العربية من المصريين والشرقيين ، وقراء الفرنسية والروسية أيضاً فقد ترجم إلى الفرنسية والروسية كما تعلمين .

كلا كلا ، ستحمينه وستقومين دونه يا سيدتى إبقاء على شخصه ورحمة لأهله وأصدقائه ومحبيه ثم حفاظاً للأدب وذوداً عن حرية الرأى ، يا للشر يا للخطر، يا للبلاء ، حتى أرواح الموتى قد مستها عدوى الطغيان فهى تمقت حرية الرأى وتعاقب العقل حين يفكر والقلب حين

يشعر . والخيال حين يبتكر . ألم يكف حرية الرأى ما تلقاه من عنت الطغاة بين الأحياء حتى تصبح أرواح الموتى عدواً لهذه الحرية وظهيراً لخصومها وأعدائها ، لن ترضى نفسك الأبية عن هذا الذل ياسيدتى ، إن الذين يعتدون على حرية الرأى من الأحياء والأموات إنما يعتدون عليك أنت لأنك مصدر الرأى والشعور والخيال ، إن الذين يستعدنوك على توفيق ويغرونك به لا يستعدونك إلا على نفسك ولا يغرونك إلا بنفسك ، فاحذرى ياسيدتى أن تسمعى لهم .

لبيك لبيك ، مرينى أكن عند ما تحبين

ولم أكد أتم الكتاب وأترك صاحبى يضم عليه الغلاف حتى أحسست حركة خفيفة وإذا صاحبى ينهض مذعوراً لأن الكتاب قد اختطف من يده اختطافاً .

فى الحمام

مشى الأسير بين الفتيات الثلاث إلى الحمام مطأطىء الرأس ، يخفى عنهن وجهه بمعطفه وهو يردد فى نفسه قانطاً :

ـ أهكذا قضى الأمر ! ولم يغن عنى شيئا ذلك الحوار الذى دار بينى وبين شهرزاد ؟ وبعد ! أ أترك نفسى حقا لهاته الفتيات يفعلن بى الأفاعيل ؟ أرى والله أن لم يبق لى غير الهرب .

وسار فى سكون ينتهز نهزة صالحة . وأرادت الجوارى أن يجاذبنه الكلام فلم يتلقين جوابا . فقالت إحداهن :

ـــ عجبا . إنه كالنائم .

وقالت الثانية :

ـــ إنه شارد اللب كالذاهب إلى المشنقة !

فأجابت الأخيرة :

ـــ ربما أفاق ونطق إذا غطسناه فى الماء البارد .

فاصطكت أسنان الأسير وسرت فى بدنه رعدة ، غير أنه لزم الصمت . وواصل الجميع السير فى دهاليز ممدودة، بعضها مضىء وبعضها مظلم، حتى بلغوا منعطفا ضيقا فوقفت الأولى وقالت :

ـــ أرى أن تذهب إحدانا فتحضر الصابون وأن تذهب أخرى فتحضر المواسى وأن أقود أنا السجين . ثم نتقابل جميعا عند الحمام ؟

فرفعت الثانية عقيرتها مغيظة :

ـــ عجبا لهذه القسمة الضيزى ! تختارين لنفسك الانفراد به ، ونذهب نحن للتافه من الأمر ! كلا. هذا لن يكون ، أنا أقود الأسير وأنت تذهبين للصابون !

فصاحت بهما الثالثة :

ـــ لا أنت ولا هى . بل أنا .

ـــ أنت ! هيهات ! تعال أيها السجين !

ـــ دعيه ! تعال معى أنا أيها الأسير !

ـــ أيها السجين ، قف إلى جانبى أنا .

وتناولنه فى أيديهن كالكرة يتنازعنه ، وقد ساءت حاله معهن وبح صوته من الصياح :

ـــ حسبكن . حسبكن ! قد مزقتن المعطف بهذا الشد والجذب ! اتفقن أولا فيما بينكن !

ـــ نتفق ! هيهات ، هيهات أن نتفق بغير هذا !

خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الأخريان نعليهما . واشتبك الثلاث فى معركة حامية الوطيس والأسير بينهن يصيح :

— مهلا، رفقا ! إن النعال لا تصيب إلا قفاى! اتركنى ناحية ريثما تصفين ما بينكن من حساب !

فدفعنه بعيداً عنهن . فنهض ونفض الغبار عن ثيابه والتفت فى الحال يمينا ويساراً فألفى بقربه دهليزا مقفرا مظلما فانسل فيه هاربا وهو يقول غير مصدق :

— تلك هى الفرصة الذهبية التى لن يجود بمثلها الزمان !

***

فى ذلك الوقت كان طه حسين جالسا إلى صاحبه « فريد » تحت شجرة الزيزفون يصغى إلى ما يقرؤه عليه من شعر « المتنبى » ، وهو فى حقيقة الأمر لا يصغى إلى شىء ولا يستمع إلا إلى « شهرزاد » الماثلة فى أعماق نفسه تهمس اليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت أجنحة فراش جميل الألوان ، أو حفيف غصين محمل بأزهار الربيع ، ذلك الصوت الذى كلما سمعه فتن به افتتانا . إنه يملأ أذنيه الآن . بل إنه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن فى

المروج. هو شيء غير منظور، لكنه يحس له كيانا حيا وجسما نابضا لا ككل الأجسام! انه يدعوه فى اشارة خفية ويجرى أمامه إلى جهة قصية. هنا لم يملك الدكتور نفسه فنهض مستويا على قدميه. فوقف صاحبه عن القراءة مستغربا:

ـــ ماذا جرى؟

ـــ هلم بنا اليها.

ـــ إلى من؟؟

ـــ إلى الفاتنة ربة القصر المسحور.

ففكر «فريد» قليلا ثم قال فى تردد:

ـــ ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة الى المثول بين يديها

ـــ لاحاجة بنا الى دعوة ولا أحسبها تكره لقائى فى أى وقت.

ـــ ولكننا.. نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز، والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها أو دليل.

ـــ قلت لك هلم ولا تزد .

ـــ إنها لمخاطرة .

فضغط « طه » على يد صاحبه ضغطاً قويا كاد يؤلمه وصاح به :

ـــ إنى قد عزمت .وأنا رجل كما تعرف صلب الرأى عنيد . ولا شيء يثنينى عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل.

ـــ هذه الصلابة قد عرضتك أحياناً إلى ماتكره .

ـــ حقيقة . ولـكنى . . هـكذا خلقت . ولا قبل لى بتغيير طبعى وسجيتى . . هلم . . .

***

وفى حلك الظلام سار الاثنان مجدين حتى بلغا أسوار القصر المسحور . فتمهلا وجعلا يتلمسان فى الأسوار بابا أو مدخلا فلم يجدا من ذلك شيئا . وأعياهما التعب فقعدا على الأرض وأسندا ظهريهما إلى السور وتساءلا فى يأس:

ـــ كيف السبيل إلى داخل القصر ، وكيف دخلنا إذن أول مرة ؟ ! إنه لا باب له. حقاً إنه لقصر مسحور !

ولم يدم يأس طه حسين طويلا وسرعان ماأسلم نفسه للقدر كعادته . فالتمس فى الظلام يد صاحبه الذى ألجمه الخوف ووحشة المكان وجهل المصير، وهزه هزاً خفيفاً وقال له :

ـــ ناولنى « سيجارة » !

فثاب « فريد » لنفسه وأخرج من جيبه لفائف التبغ وقدم إلى الدكتور واحدة منها ثم أخرج علبة الكبريت وأراد أن يحك العود فى السور وإذا يده قد غارت هى وعود الثقاب فى فجوة لا آخر لها فصاح لساعته :

ـــ هنا ثغرة فى السور ؟

ـــ أين ؟ أين ؟

وقام « طه » فى الحال نازعا من فمه « السيجارة » :

ـــ فلندخل من هذه الثغرة !

ولم ينتظر من صاحبه رأياً ولا جواباً . فأمسك بذراعه ودفعه أمامه إلى داخل الثغرة دفعا . ثم مشيا قليلا ثم كثيرا . ثم أمعنا فى المشى دون أن يصلا إلى بصيص

من نور . فاوقدا عود ثقاب فاذا هما يتخبطان فى دهاليز طويلة مظلمة متشعبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة. عندئذ صاح « فريد » :

ـــ حصل .

ـــ ماهو الذى حصل ؟

ـــ قد وقعنا فيما نكره.

ـــ كيف ؟

ـــ إن لم يكن هذا جب . فأغلب الظن أنا الساعة فى موضع لن نصل منه إلى شىء . آه ! وقعنا . من ذا الذى يستطيع أن يخرجنا من هذه الدهاليز التى يضل فيها الخاطر

ـــ وما الرأى ؟

ـــ تسألنى الآن الرأى يادكتور ؟ ! لم يبق من رأى إلا أن نختار لنا طريقا من هذه الطرق ونسير فيه الى النهاية .

ـــ كلا . تلك ليست عادتى . اضرب بنا فى كل طريق

ـــ لدى فكرة. ابق انت يا دكتور هاهنا، ولأذهبن أنا ركضا فى كل جانب من جوانب المكان حتى إذا ظفرت بشىء عدت إليك.

ـــ نعم الرأى. اذهب وأنا فى انتظارك هـهنا.

***

ذهب «فريد» وابتعد. وبقى الدكتور وحده فى ذلك الموضع من الدهليز يفكر فى أمره تلك الليلة وفى هذا المأزق الذى أدخل نفسه فيه وقد كان فى الفندق آمنا مطمئنا، لكنه يتبرم دائما بالأمن والاطمئنان ويخلعهما عنه فى ضيق كما يخلع الرداء الثقيل فى يوم قيظ شديد. ما الذى حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف هذه الوقفة فى الظلام يلتمس صوتا أو حركة فلا يسمع الا أنفاسه المضطربة. نعم، لقد بدأ القلق والخوف يحدان اليه السبيل. ويخيل إليه أنه يسمع الآن همسات بعيدة. أهى حقيقة؟ أم هو الوهم والخيال بدءا يلعبان على مسرح الرأس التعب!! ولكن الهمسات تقترب وتتخذ

رنينا واضحا يدوى بين جدران الدهاليز . بل إنه يسمع الساعة صوت أقدام تضرب الأرض . إنها تدنو ، تدنو والأصوات تتضح . إنها أصوات نساء . نعم لم يبق ريب فى الأمر .ولم يلبث طه حسين أن أحاطت به الفتيات الثلاث وهن يصحن :

— ها هوذا ! قد وجدناه !

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشدة وجذبنه جذبا عنيفا وهن يقلن فى شبه صوت واحد :

— أيها الهارب !

ذهل طه حسين فى أول الأمر ذهولا عقل لسانه . فهذا الانقضاض عليه فجأة فى هذا الليل الساجى ليس هين الوقع على النفس. غير أنه ملك سريعا ناصية أمره وقال دهشا:

— هارب ؟ ! على النقيض . إنى جئت بنفسى وأقبلت شوقا وحباً . . .

فقالت الجوارى ساخرات :

— شوقاً وحبا ! ياله من مخادع !

وقالت الأولى وهى تقرصه قرصة مؤلمة :

ـــ أيها الماكر! انتهزت فرصة خلاف دب بيننا وفررت ..

ـــ آه! ذراعى! لامعنى لهذا القرص الموجع أيتها السيدة المهذبة!

وقالت الثانية وهى تخزه بأبرة معها :

ـــ لقد قلبنا الدهاليز رأسا على عقب حتى وجدناك!

ـــ آه! آه! كل شىء إلا وخز الأبر!

وقالت الثالثة وهى تعض أذنه :

ـــ لو عرفت المصير المخيف الذى كان معداً لنا إن كنت ذهبت ولم نعثر عليك!

ولم يطق الدكتور الألم فصاح وهو يضع يده على أذنه:

ـــ كل هذا قد جاوز الحد! ألا يمكن ياسيدتى أن نتكلم بالعقل وأن نتفاهم بالمنطق..

فدوت فى المكان ضحكة الجوارى الهازئات :

ـــ المنطق! سنريك الآن كيف يكون المنطق!

ثم حملنه على أكتافهن حملا وسرن به سيراً سريعا يشبه الجرى واحداهن تقول :

ـــ لقد أضعت الوقت ومولاتنا فى الانتظار . ولا نرى إلا حملك والركض بك ! أليس يعجبك هذا المنطق ؟ !

وأراد الدكتور أن يتكلم وأن يستعلم وأن يستخبر فلم يسمحن له بالكلام . ولم يصر هو كل الأصرار خشية عودتهن الى القرص والوخز والعض . وهو الآن على كل حال بخير فوق أكتافهن . وبلغت الفتيات أخيراً مكانا رحبا مضيئا، فى صدره باب جميل النقوش كأبواب قصر من قصور ألف ليلة وليلة . فقالت الأولى :

ـــ هاهو ذا الحمام . فلندخل به !

ولم ينتظرن . ولم يستمعن الى اعتراض الدكتور . فدخلن وتهامسن وتغامزن ورفعنه قليلا ثم ألقين به دفعة واحدة فى حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن ضحكا عاليا .

غاص طه حسين فى الماء ثم طفا وظهر وهو يشهق ويسعل وينتفض وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وثيابه والجوارى مستغرقات فى ضحك مرتفع . وإحداهن تشير إليه وتقول لصاحبتيها :

ـــ أنظرا ! إنه ينتفض كأنه عصفور بلله القطر ...

فاجابت الثانية على الفور :

ـــ أى قطر . إنه كعصفور غمره البحر ؟ !

ونظرت إليه الثالثة وقالت ضاحكة :

ـــ أنصتا ! إنه يريد أن يتكلم .

والتفت طه حسين حقاً إليهن وأراد أن يقول شيئاً ولكنه ارتعد وعطس طويلا، إلى أن هدأ أمره وخف عبء بلائه واستطاع الكلام . فقال لهن :

ـــ أهى ... مولاتكن التى أمرتكن أن تفعلن بى هذه الأفاعيل ؟ !

فقلن جميعهن فى صوت واحد :

ـــ نعم .

ـــ «شهرزاد» تأمر بهذا . ؟ !

فقالت الأولى :

ـــ انها أمرتنا بأكثر من هذا . إننا لم نصنع بك شيئاً بعد . ؟

ـــ أو لا يكفى ما صنعتن بى ؟

قالها طه حسين مرتاعا على نحو أضحك الفتيات . فتساند بعضهن إلى بعض . وقالت إحداهن له :

ـــ سترى مانصنع . أين المواسى ؟

فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة داوية :

ـــ مواسى ؟ أؤمرتن بذبحى ؟ !

فقالت الجوارى :

ـــ كلا . لاتخف . لقد أمرنا فقط باصلاح شأنك .

ـــ اصلاح شأنى ! ! إذا كان ماحدث حتى الآن هو مقدمة لاصلاح الشأن فلا شك أن ماهو آت أدهى وأمر !

فقالت إحداهن :

ـــ كلا . اطمئن . إنا لن نصنع بك إلا خيراً . سنحلق لك لحيتك وشاربك ونجعل منك فتى رشيقاً أمرد خليقاً بمجالسة الملكات ومسامرة شهرزاد !

لم يكد الدكتور يسمع كلمة « المسامرة » حتى لمع فى

رأسه خاطر وتذكر رسالة شهرزاد إليه ورده عليها فقال للفور :

ـــ أيتها الجوارى ؟ إن فى الأمر خطأ . لست أنا المقصود بكل هذا اللطف والعطف !

فقالت الفتيات فى تهكم ظاهر :

ـــ ومن غيرك؟

ـــ أخرجننى من هذا الحوض ! فقد تبين لى الأمر

ـــ ماهذا الهذيان ! ؟ أنخرجك قبل أن نغير هيئتك ونجمل سحنتك !

ـــ ذاك توفيق الحكيم الذى أمرتن به ... أما أنا ...

ـــ إننا لانعرف أسماء . ولم نتسلم أسماء ، إنما قد أعطينا شخصاً ، نهيئه ونقلبه خير منقلب ثم نرده لمن دفعه إلينا .

ـــ وأين توفيق الحكيم ؟

ـــ من هذا ؟ إنا لم نسمع قط بهذا الاسم . ولم نر الليلة غيرك .

فخنق طه حسين وملأه ياس وغيظ فانفجر :

ـــ أكاد أفقد صوابى ! أين توفيق الحكيم ؟ أيها الناس ، دلونى فقط على هـــذا اللعين وأنا أتكفل بالباقى !

وعندئذ قالت إحدى الجوارى :

ـــ كفى إضاعة وقت ! إن الملكة فى الانتظار . أين المواسى ؟

فصاح طه حسين :

ـــ انتظرن أيتها الفتيات ! إن فى الأمر خطأ . وما أنا المقصود . اذهبن بى إلى شهرزاد وهى تحكم فى الأمر...

فقالت الأولى :

ـــ مابالك تخلط الآن فى الكلام . أين المنطق الذى كنت تتحدث عنه !

وقالت الثانية :

ـــ إن حكم شهرزاد فيك قد سبق . وأمرها صريح لا إبهام فيه .

وأردفت الثالثة وقد رفعت فى يدها الموسى :

ــ ها هو ذا الموسى ! تقدم .!. ولا أمل لك بعد الآن فى الأفلات ولا فائدة من المطل . فانا لن ندعك حتى ننفذفيك أمر الملكة ونعيدك إليها حسن المظهر جميل المنظر!

فأسقط فى يد طه حسين وَلم يجد لنفسه مخرجا فطأطأ الرأس هامساً :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون !

استلقت « شهرزاد » على فراشها وغاصت بين دمقس وسائدها . وغاص عقلها فى بحار التأملات . لقد كان يدهشها أمر الأسير الذى اختطفته ليبقى إلى جانبها يؤنس وحدتها فلم تظفر منه بغير الأعراض والرغبة فى الافلات! أترى فقدت « شهرزاد » سلطانها على الرجال ! هى التى من بين نساء الوجود قد فازت وحدها باخضاع ذلك الجبار « شهريار » ! تعجز اليوم ويعجز

جمالها وذكاؤها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا السجين ذى المعطف الأسود وعصا السمك ! أتراها قد هرمت وهى التى لا عمر لها ولا ينبغى لها أن تهرم ! أهو عجز وقصور منها حقاً . أم هو حمق وتقصير من ذلك المخلوق الذى لم يستطع تقدير كنوزها ولآلئها!؟ لكن أيمكن أن تتهم بالحمق وقلة التقدير رجلا كتب عنها كتاباً فجعلها فيه صنو « إيزيس » و « بيدبا » ! لكن ما باله إذ رآها وقابلها الليلة وجها لوجه لم يلفظ كلمة تقدير ولم يلق إليها بكلام عميق ولم تسمع منه إلا هراء ينم عن استخفاف . أهى التى كانت تدعى إلى صيد السمك من الغدران ! أم هى التى كانت جديرة أن يدعوها إلى زيارة هيا كل الفكر الأنسانى الخالدة على الزمان ! حقاً إنها لا تفهم من أمره شيئاً . هى التى تفهم الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال ! لا تستطيع أن تفهم هذا الرجل المعقد ! لكن لما ذا لا تريد أن تعتقد أنها قد هرمت قليلا وأن شعرات قد ابيضت فى رأسها الأسود الجميل

وإن المرأة إذا هرمت كان عليها هى أن تترضى الرجال وأن تساير هم وأن تعنى بالتافه من رغباتهم . فان استبقاء الرجال فن يجب أن تحذقه المرأة إذا علت بها السن . وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضى فجلست بلا حراك تنتظر أن يحثو عند قدميها الرجال! إن لكل سن طرائقها ووسائلها . ولكل وقت أدوات صيده ؟!

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين إذ نصح لها فى رسالته ألا تهمل رغبات توفيق التافهة وأن تتبعه حاملة مثله « السنارة » إلى الجداول يصيدان السمك الصغير وهى الملكة العظيمة ! وأن ترافقه إلى المقاهى الحقيرة إذا طلبها هناك دون أن ترى حرجا فى ذلك أو تحقيراً من شأن مقامها الجليل ! إنها قد نسيت أن للرجال صغائر وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل . فلتتبع توفيقاً فى أطواره ولتر منه ما يكون ! نعم هذا هو الرأى ولكن لماذا أبطأت به الجوارى ؟ وقد كاد الليل أن يولى . هنا نهضت شهرزاد واستوت فى فراشها وصفقت بيدها

فجاء العبد فقالت :

ـــ أين السجين ؟

ـــ إنه فى أيدى الجوارى يا مولاتى ؟

ـــ أما فرغن بعد من أمره . فليسرعن به إلى !

ـــ مولاتى!

ـــ مابك ؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك!

ـــ هذا السجين ، قد بلغنا من أمره كما تعلمين خبر عظيم . فهو قدوصفنافى كتاب له وصفاً قبيحاً،وافترى علينا افتراء أثيما ! وكلنا هنا يطلب رأسه . وقد أقسم « الجلاد » أن يتولى الجزاء بنفسه . وقد تلقى أمراً من الملك «شهريار» بذلك و « الوزير » و « الساحر » و « زاهدة » و « أبو ميسور »...

ـــ ليس يعنينى من أمرهم شىء . كل أولئك أشباح تعيش فى الماضى ،وقدجاءت إذسمعت بسجن توفيق الحكيم كى تثير قضية تتعلق بالماضى . ولكنهم جميعاً غير قديرين على الحياة فى الحاضر والكلام فى الحاضر . لقد دخل

على « شهريار » منذ لحظة ففرحت به كأنى عثرت على كنز مفقود . لكن واأسفاه . سرعان ما تبين لى أنه لا يعرفنى ولا يعرف عن حياتى اليوم شيئاً . فهو شبح وذكرى . وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة والعشرين صفحة التى كتبها توفيق الحكيم . لقد يئست منه بعد قليل . وهو أيضا قد تركنى دون أن يعرفنى كأنه نائم أو مجنون . . .

— إنه يا مولاتى مع الوزير قمر والجلاد والساحر وأبى ميسور وزاهدة . . .

— نعم مع بقية الأشباح . إنهم يستطيعون أن يفهم بعضهم بعضا . . إياك أيها العبد أن تجلس إليهم !

— إنى يا مولاتى أعيش معك اليوم فى الحاضر . . ولكنى أحيانا . . .

— كفى ! إنى لا أطيق الكلام فى الماضى طويلا . إنى أعظم من أن أحبس فى عصر واحد . إنى لكل العصور . .

— مولاتى ؟

— ماذا تريد ؟

— إن لم نسلم إليهم ذلك السجينّ فانهم لن يفارقونا .

— إنها لمحنة ! وما الرأى ؟

— ماذا يهمنا من أمر هذا السجين ، فلنقذف به إليهم

— لم يخب ظنى ، إن نصفك معهم ونصفك معى .

— إنما أردت يامولاتى أن أريحك من وجودهم !

— لن أقطع برأى حتى أستشير صديقا لى . اذهب الآن عنى !

* * *

وسكتت شهرزاد قليلا وأطرقت مليا . وإذا الباب يضرب عليها، فرفعت رأسها وأذنت فى الدخول . ففتح الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء جميل واسع الأعطاف لو لم يكن مزين الحواشى بالذهب والفضة واللآلىء النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعى الذى يرتديه العمداء فى الحفلات الرسمية الكبرى . وقد غدا

الدكتور حليقا وسيما تطمع فى رضاه الجميلات . فتقدمت به إحدى الفتيات وقالت .

ـــ ها هوذا يا مولاتى قد هيأناه !

نظرت شهرزاد، ثم أنعمت النظر ، ثم قالت كالمخاطبة لنفسها :

ـــ مستحيل ماذا فعلتن أيتها الجوارى . . .

هنا رأى طه حسين أن من واجبه أن يلقى الضوء على هذا الموقف الغامض وأن « يرد الأمر إلى نصابه » فقال:

ـــ مولاتى ! إنى لست توفيق الحكيم.

ـــ طبعا .

ـــ إنى . . .

ولم تطق شهرزاد صبراً فقالت فى حدة :

ـــ أو تجرؤ يا هذا على الدخول على بهذا التمويه . .

ـــ مولاتى عفواً . . إنى لست فى حاجة الى التمويه . . كما تعلمين . .

ـــ وأين إذن توفيق الحكيم : وماهذا الزى الذى عليك

ـــ سلى جواريك !

فالتفتت شهرزاد إلى الفتيات ونظرت إليهن نظرة المستفسر . فقالت إحداهن فى لهجة بريئة صادقة :

ـــ أليس هو هذا الذى تسلمناه من مولاتى .

ـــ مطلقا . أيها الفتيات :

فالتفت طه حسين إلى الجوارى وقال فى انتصار :

ـــ لقد بُحَّ صوتى من القول أن فى الأمر خطأ . ولكنهن مضين يصنعن بى مالا يصنع ! . وعندئذ لم يسع الفتيات الا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذى حسبوه الهارب . ولم يسع طه حسين الا أن يقص قصته وما وقع له بالتمام والكمال من وقت خرج من داره الى أن مثل بين يدى شهرزاد فى هذه الهيئة والزى . وختم حديثه قائلا للملكة :

ـــ أرأيت يامولاتى ! لقد صدق المثل العامى « من خرج من داره قل مقداره » .

ولكنى مع ذلك راض بما كتب لى، مغتبط برؤيتك فى النهاية على كل حال !

فضحكت شهر زاد وقالت فى رقة :

— أيها الصديق العزيز ! إنى آسفة لما وقع لك . وآسفة أنى لم أبعث اليك رسولا يحضرك إلى بدلا من الكتابة اليك. ولكنك قد حصلت عندى آخر الأمر. وإنى الآن فى حاجة شديدة اليك

— إنى خادمك ورهين أمرك .

— أولا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا ؟ أريد رأيك فى ذلك . ؟

— أرى ياسيدتى أن تطلق رجالك فى أثره يبحثون عنه .

— أين؟!

— أرى أن يبحثوا عنه عند شواطىء البحار والأنهار والجداول والغدران كافة . فأن السمك وحده الآن هو الذى يعرف مقره .

ـــ نعم الفكرة . هنالك أمر آخر شديد الخطر أطلب رأيك فيه : أتذكر فى رسالتى أنى حدثتك عن أشباح أشخاص توفيق الحكيم . إنهم هنا الآن يلحون فى طلب رأسه . ولا أراهم يبرحون حتى يسلم اليهم . أأسلمه لهم أم أمنعه . . . ؟

ـــ مولاتى ! لاهذا ولا ذاك . .

ـــ عجباً ! ماذا أصنع إذن .

ـــ لا إعدام بغير محاكمة . ولا محاكمة بغير قضية . فاشترطى عليهم ألا تسليمه إلا أمام محكمة يدلون أمامها بما يتهمونه به وما يريدون من أجله رأسه .

ـــ نعم الرأى . نعم الرأى . إن آراءك فى نضجها كآرائى فى سن الشباب الأول . لكأنى بك قد نقلتها عنى واستوحيتها منى .

ـــ كل أفكارى وآرائى مستمدة من ضوئك ياسيدتى !

ـــ بقى أمر واحد : من هو القاضى الذى يحاكم صديقنا .

هنا يفكر طه حسين ملياً ويقلب فى ذهنه الأسماء . ثم لا يلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر :

— وجدته يامولاتى وجدته . إنه القاضى الذى لا يرد حكمه . وهو بعد ليس بالمجهول من المتهم فقد ردد اسمه كثيراً فى كتبه وذكره على أوضاع شىء فى كتاباته . .

— من هو ؟ من هو هذا القاضى ؟

— الزمن .

محنة توفيق الحكيم

وقد غمرنى فى محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن الظرف والعطف ، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث ، ما أنسانى صنيع هؤلاء الجوارى الماكرات ، وكاد يردنى إلى الأمن والهدوء وإلى الدعة واللذة ، لولا أن خاطراً ملحاً كان يتردد علىّ من حين إلى حين فيذهلنى بعض الشىء عما كنت أجد من نعيم ، وكأن شهرزاد قد أحست هذا فهى تدق فى ظرف بدا بيد ، وإذا الفتاة التى أدخلتنا عليها ،

فى الزيارة الأولى قد أقبلت خفيفة ظريفة كعادتها ، فانحنت ثم استوت ، وإذا شهرزاد تسألها ماصنع صاحب الأستاذ. قالت الفتاة فى صوت ساحر: هو هنا يامولاتى منذساعة ، قلق النفس مضطرب البال ، لا يصدق ما أؤكد له من مكان الأستاذ بين يديك ، ولايريد أن يطمئن حتى يراه. قالت شهر زاد فأدخليه . ثم التفتت إلى والفتاة تنصرف ، وقالت أظنك تستطيع الآن أن تخلص لى . وهممت أن أجيبها لولا أن عبدها الأسود أقبل مسرعاً فقطع علينا الحديث وهو يقول : أدركى أسيرك يامولاتى فقد أشرف على الخطر ودنا من البوار . قالت شهرزاد فى هدوء يملؤه الدل والتيه ؛ وما ذاك ؟ قال الأسود اجتمعت على سجنه الأشباح يا سيدتى ، ولولا أنى وكلت بهذا السجين أشد من فى القصر من أبناء أبى قوة وأيداً، وأصلبهم عوداً وأقدرهم على المقاومة وأصبرهم على الجهاد ، لاقتحم السجن عليه اقتحاماً ، ومع ذلك فالأشباح ملحة فى الهجوم تصطنع فيه فنوناً من العنف الصريح والمكر المغرى ، ولست آمن

أن تظهر على الجند ، فان كانت لك حاجة فى أسيرك فأسرعى إليه ، فلن يرد الأشباح عن سجنه إلا مرآك

وكنت قد نسيت توفيق الحكيم وشغلت عنه بما لقيت من شدة أول الأمر ، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك الوقت ، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت إليه نفسى ، فسألت الأسود : وهل ظفرتم به ؟ وكيف وجدتموه ؟ قال الأسود وهو يقاوم الضحك مخافة أن يُحفظ مولاته : أخذناه ياسيدى وأنفذنا فيه قوانين القصر . قالت شهرزاد أو كنت تظن أن سذاجته تغلب مكرى ؟ أو تحسب أن الخروج من هذا القصر ميسر لمن دخله ؟ وإذن فأى أمن لشهرزاد وأى سلطان بقى لها ، وأى سحر هذا الذى يحيط بالقصر إذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق أن يفر من أهله وينفذ من أبوابه كما يريد ؟ قلت : فانى لم أفر من أهله ياسيدتي ، ولكنى دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولى ، وانسبت فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكاني منه . قالت وهى تضحك : فأن هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيداً مما تظن ، أواثق

أنت بأن رسلى ليسوا هم الذين أغروك بالخروج فى طلب القصر ودلوك على طريقه وانتهوا بك وبصاحبك إلى هذا الفجوة التى انسللتما منها ؟ ولكن فى الأمر تقصيرا من غير شك، ثم التفتت إلى الأسود قائلة : والفتيات ماذا صنعتم بهن؟ قال أنفذت فيهن قوانين القصر يا مولاتى، وهن الآن مشدودات من شعورهن إلى السقف فى غرفة العذاب تصب عليهن السياط صباً. قلت مأخوذاً: أو تفعلون هذا بهؤلاء الجوارى الحسان ! قالت شهرزاد كأن قلبك قد رق لهن ، وكأنك نسيت أنهن أعرضن عما كان يجب من إنفاذ أمرى وفرغن للهوهن ، وما ينبغى لمن اتصل بشهرزاد أن يشغل عنها بنفسه . فكيف بهؤلاء الأماء اللاتى لا وجود لهن إلا مستمد منى . قلت مستعطفاً : رفقا بهن يا سيدتى ، فقد كن ضعافا وقد كن أغراراً، ظنن وراء الأكمة شيئاً فلم يجدن إلا هواء وغروراً . قالت شهرزاد : وإعراضاً عنهن وفراراً منهن. قلت: فأنى شافع فيهن. قالت سنرى فى أمرهن ، ولكن لنسرع إلى صديقنا الأسير فما ينبغى أن تستأثر به هذه الأشباح الضارية .

ولا بد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الأسير من بدئها فأنك لم تعرف إلا آخرها : هو الآن محصور فى سجنه مغلوب على أمره، تتراءى له الأشباح موعدة منذرة، ولكنها لا تبلغه لمكان هؤلاء الجنود السود ، وهو كلما رآها اضطرب من رأسه إلى قدميه وجرت الرعشة فى بدنه كله، فأسنانه تصطك وفرائصه ترتعد وصوته يخرج من فمه هائلا مبهماً لا يفهم منه إلا شيء واحد وهو أنه جزع يستنجد ويستغيث . فكيف انتهى إلى هذا السجن ؟ عرفنا ذلك من أمره فيما بعد، فلا تسل عن ضحكنا منه ولا تسل عن ضحكه من نفسه ، وما أظن إلا أن هذه القصة التى وقعت له فى دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملأ مابقى من حياته الطويلة إن شاء الله ضحكا وفرقا . سيضحك منها إذا لقى الناس وأمن الاعتداء عليه ، وسيفرق منها إذا خلا إلى نفسه وأشفق أن تنجم له الأشباح من الأرض أو تهبط عليه من السقف أو تنشق له عنها الجدران . كانا إذن يضرب فى دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء

من كل شر ، لايخرج من دهليز إلا دفع إلى دهليز ، ولا يفصل عن بهو إلا ألقى إلى بهو ، حتى ضاقت به السبل ، وسدت عليه الطرق ، وكان قد منى نفسه بالأفلات وزين لها النجاة ، وكان قد أخذ ينعم باول الانتصار ويرى أنه قد خلص من هؤلاء الفتيات الحسان وأمن عبثهن بجسمه وعقله معاً . ولكنه يمضى فى الأبهاء ويدور فى الدهاليز دون أن يجد مخرجا إلى النور حتى طال عليه الوقت واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة ، وعظم فى نفسه البلاء . وإنه لفيما هو فيه من السعى الذى لا يكل والدوران الذى لا يجدى ، وإذا بصيص من نور ضئيل يخلص اليه من بعيد فيخيل إليه أنه قد وجد خيط اريان ، ويرى نفسه غريقاً قد أتيحت له خشبة النجاة فهو يتعلق إلى هذه الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه . وهو يتبع هذا النور الضئيل وقد عقد به أمله كله ، ووصل به نفسه كلها . وهو يجمع مابقى له من قوة ، ويجرى فى أثر هذا النور حتى ينتهى إلى فرجة ضيقة فى الجدار فيدخل نفسه فيها ويجاهد

ويحتال حتى ينفذ إلى ماوراء الجدار ، وإذا هو فى فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوى يرد إليه بعض مافقد من قوته . وكان خليقاً وقد خرج إلى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى أن يتهالك على الأرض ليستريح ، ولكنه يمضى أمامه وقد أسلم ساقيه للريح وأقسم فى دخيلة نفسه لايطمئن ولا يستقر حتى يبعد عن هذا القصر البغيض . والفضاء أمامه واسع عريض. قد اختلطت أرجاؤه وأطبقت عليه ظلمة كثيفة يخترقها بين حين وحين هذا النور الضئيل ، فيتبعه صاحبنا جاداً فى ذلك كل الجد، وما يشك فى أن قدرة الله قد أرسلت إليه هذا الشعاع فرجا من حرج ، ومخلصاً من ضيق ، ولكنه يقف فجأة فى شىء من الذهول والدهش كأنه قد أحس شيئاً من طريق السمع أو من طريق البصر . فاذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب ، فهو يحس شيئاً من طريق السمع والبصر معاً . يرى بناء متواضعاً قد قام منه غير بعيد ، أو يخيل إليه أن شخصاً ماثلا قريبا

من هذا البناء ، ويسمع صوتا تحمله إليه الريح لا يفهمه أول الأمر ولا يثبته، ولكنه يصغى إليه ثم يدنو منه فاذا هو يسمع ويثبت ويفهم ويعى، وإذا هو دهش قد كاد يفقده الدهش رشده، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقى له من صواب، إنه يسمع صوتا عربياً يتغنى غناء عربياً ، فأذا أطال الأصغاء، خلص إليه من هذا الغناء شعر عربى فصيح ، هنالك ينكر الرجل نفسه، ويتهم حسه، ولا يكاد يشك فى أن أطيافا من هذه الأطياف التى تملأ الجو قد مكرت به واحتالت عليه ، حتى أوقعته فى شر مما فر منه. ذلك أنه فى فرنسا فى إقليم سفوا العليا ، فاذا أتيح له أن يسمع صوتا يتغنى فى ظلمة الليل فأقصى ما يمكن أن يكون هذا الصوت فرنسياً يتغنى شعراً فرنسياً . ولكن ماذا؟ إنه ليس مجنوناً ولا مختلط العقل، فهو يسمع غناء ، وغناء عربياً فصيحاً يملؤ عليه الجو من حوله ويدعوه ، نعم يدعوه ويلح عليه فى الدعاء والاغراء ، إنه يتبين الألفاظ التى يسمعها ، إنه يحفظها ، إنه يعيدها على نفسه ، إنها تقع من قلبه الجاف المحترق مواقع الماء من ذى الغلة الصادى. إنها

ملأت قلبه ونفسه ، إنها ملكت عليه أمره، إنها قد استهوته استهواء، واستغوته استغواء ، إن هذا الغناء يصل إلى أبيات من الشعر لا يكاد ينتهى إليه البيت منها حتى يعيده كما سمعه كأنه صبى يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام :

أهلا وسهلا بخائف يمشى

مستوحش هارب من الوحش

نعم أنا والله هذا القادم ، إنى لأمشى فى هذا الفضاء العريض مستوحشاً، وما هؤلاء الفتيات اللاتى هربت منهن الا وحشا من وحش الجن لا من وحش الانس .

فر من القصر وهو يجهل ما

دبر من حيلة ومن غش

نعم والله، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدرى ماذا دبر لى كيد شهرزاد ومكر طه حسين .

أقبل فعندى لك الأمان وما

يدنيك فورا من أرض سالنش

لبيك لبيك ، هأنذا آمن من الخوف ، فاحملنى الى

سالنش، الى فندق مون جولى، فقد بعدت عنه وقد اشتقت اليه، إنى لمتعب، إنى لمكدود، ما أشد حاجتى الى الراحة.

ان شئت نوما فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش

من القش أو من الحطب أو من الخشب أو من الحجر، النوم! النوم! إنى أريد أن أنام لأفلت من هذه الأحلام المروعة.

أو شئت شربا فان بيرتنا تملأ رأس النديم بالوش

لقد نضب ريقى ويبس حلقى، وجف لسانى حتى كأنه الحطب، بيرة سالنش فى تلك القهوة الصغيرة، قهوة الجبل الأبيض التى كنت أخلو فيها الى نفسى والى القدح والقرطاس سبع ساعات كاملة.

أو شئت أكلا فان جبنتنا لا يأتلى دودها من النغش

كامبير، روكفور، روبلوشون، جبنة مصر، يجب أن أكون نائما فما ينبغى أن يكون ما أسمع وما أحس الا حلما.

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقش

هنا يمتلىء فم صاحبنا بضحك عريض متهلل وتنطلق ساقاه فى الريح، لقد أيقظه هذا البيت ونبهه، لقد عزف

هذا الصوت، إنه صديقه طه حسين قد أقبل يخلصه و ينجيه، إن هذا البيت يذكره بذلك السؤال الذى ألقاه ذات ليلة على المائدة حين قدم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون بئر الحب، وأراد أن يسأل أيدخل البيض فى تكوين هذا اللون .فقال أنى الحب بيض. فضحكت الجماعة، وأجابه صديقه طه حسين نعم فيه بيض يفقس عن فَرُّوج، هو إذن طه حسين قد طالت عليه غيبتى فأقبل يبحث عنى و يستنقذنى.

أصحـــابنا كلهم ذوو بله تأمن منهم مرارة القفش

إنه لطه حسين ما أشك فى ذلك، إنه يطمئننى ويهدىء روعى، وينبئنى بأنه لن يعبث بى ولن يتندر على كلما هفوت فى حركة أو حديث.

حياتنـا لو علمت ناعمـة لم يلقها قط عاهل الحبش

الحبش! و ماخطب النجاشى فى هذه القصة؟ لقد علمت أنه كان فى لندرة، ثم ذهب منها الى جنيف، ثم عاد منها الى لندرة. فما لى وللنجاشى، ألا أزال مختلط العقل، أنائم أنا كاليقظان! أيقظان أنا كالنائم.

أقل مافى أقلها سمـــك يسبح فى بركة من المش

سمك! بركة! مش! فقد أتيح لى إذن كل ما أنا محتاج اليه. أستطيع أن أصيد وأستطيع أن أسبح وأستطيع أن أرتوى أقبل أعنا على الهموم فقد ضقنا ذراعا بالكنس والرش

كلا. كلا. لست يقظان بل أنا نائم. لست نائما بل أنا يقظان. لست عاقلا بل أنا مجنون، لست مجنونا بل أنا عاقل. ماذا أسمع؟ الكنس والرش، إن طه حسين لا يكنس ولا يرش، ولكنه يقرأ المتنبى ويتحدث عن شهرزاد. أين أنا! ماذا دهانى! ماذا أصابنى! ثم تنحدر من عينيه دموع غلاظ ساخنة. ولكن يدا ضخمة عريضة ثقيلة تنقض على كتفه، وصوتا غليظا أجش يقول له فى نبرات مرتعشة يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف. أهون عليك فما بك من بأس. هنالك يصيح الأسير الهارب من أنت؟ ألست طه حسين؟ فيجيب الصوت الغليظ الأجش، كلا يا سيدى، ولكنى رئيس الشرطة فى القصر المسحور. علمت بفرارك ولم أرد أن آخذك أخذا عنيفا،

فمددت لك أسباب الأمل وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت إلى ما كان يجب أن تنتهى اليه من الاذعان لسلطان شهرزاد . والأمور كلها تجرى فى هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التى تظهر قاسية بعض القسوة ولكنها لينة كل اللين . فلا تخف ولا تحزن واستقبل أمرك راضيا مطمئنا فما أرى إلا أنه سينتهى إلى ما تحب وترضى . قال ذلك وقاد الأسير إلى هذا البناء المتواضع، حتى إذا تجاوز الباب نظر توفيق فاذا سرير عليه وسائد من القش قد هيىء له كأنما يدعوه ليستريح . قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء . ماذا تريدون أن تصنعوا بى ؟ قال رئيس الشرطة : نريد أن نريحك شيئا فقد أجهدك الهرب ، ونريد أن نطعمك فقد أضناك الجوع، ونريد أن نسقيك فقد ألح عليك الظمأ ، ونريد أن نرضيك ونرفه عليك فنعود بك إلى غدير لا يفلت منك سمكه . ثم نريد بعد هذا كله أن نردك إلى مولاتنا شهرزاد لترى فيك رأيها ، وما أظن إلا أنها ستدفعك إلى فتيات أخريات ملاح أو

قباح، يصلحن من أمرك ثم يعدنك إليها خليقا أن تكون لها سميراً، فأن شهرزاد إن قضت شيئا لم يرد قضاءها إلا الله، سمع توفيق هذا كله فخر على سرير القش لا يعى شيئا. أكان نائما ؟ أكان مغشيا عليه ؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فاذا هو فى مكان مظلم ينفذ إليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة لو لم ينفذ إليه . فقد استطاع أن يتبين بفضل هذا النور وجوه ثلاث من الأماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس ، وقد انحنين عليه فى رفق أيسر منه العنف، وابتسام أجمل منه العبوس، وهن يداعبنه بأصوات منكرة ويمسحن وجهه وعنقه بأيد خشنة تجرى فى جسمه قشعريرة فظيعة وهو يصيح بهن : من أنتن ! ما خطبكن ! ماذا تردن منى ! إليكن عنى . وكأن زجره لم يكن إلا إغراء فهن يقبلن عليه ويدنين منه ، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع ، ويمددن إليه شفاههن البشعة المنكرة يظهرن الرغبة فى تقبيله وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده ، وهو يهم أن ينهض ليعدو هاربا فلا

يستطيع لأنه يحس فى رجليه ثقل القيد ، وإذا هو يتقيهن بالوسائد يحمى بها منهن وجهه، ولكن أيديهن الخشنة تعمل فيما بقى لهن من جسمه عملا ثقيلا طويلا مؤذيا، حتى إذا بلغ منه الجهد وأدركه الاعياء وكاد يعود إلى النوم أو الاغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب إليه شىء من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات وقدمن إليه طعامه وشرابه من جبن كالمبير وبيرة سالنش . فيسرع إلى ماقدم إليه من ذلك إسراع النهم الشره الذى أنهكه الجوع . وما يكاد يفرغ من طعامه وشرابه ويسترد حظا من رشده وصوابه ويبدأ التفكير فى أمره كيف ابتدأ والمهم انتهى، حتى يرى رئيس الشرطة مقبلا عليه ومن ورائه غلام أسود نحيف ولكنه حسن الطاعة يحمل أدوات الصيد كاملة . فاذا رأى توفيق أدوات الصيد عاد إليه نشاطه وجرت على وجهه المتعب الشاحب ابتسامة حلوة فيها سذاجة الطفل البرىء ، وهم أن ينهض ولكن القيد يثقل رجليه فيثوب إلى نفسه حزينا مبتئسا ، ولكن صاحب

الشرطة يدنو منه متلطفا له فيحط عنه القيد ويخلى بينه وبين الحركة والنشاط

ونهض الأسير سعيداً بهذه الحرية التى ردت إلى رجليه، مغتبطا بهذه النزهة التى تهيأ له عند غدير يصطادفيه السمك ، معجبا بذكاء هذا الغلام الأسود النحيف الرشيق الذى لم ينس من أدوات الصيد ما تعود هو أن ينساه ، فاحتمل معه سلة رحبة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكا كثيرا ، ولكن توفيقا عندما حدق فى هذه السلة الرحبة عاد اليه الشك وابتسم فيما بينه وبين نفسه والتفت إلى رئيس الشرطة قائلا : « أجادون أنتم فى أمر هذا الصيد أم لايزال عبثكم بى متصلا؟ قال صاحب الشرطة: هلم ياسيدى، سترى عندنا وتفهم مالاتريد أن ترى ولاتفهم من أن حياة الناس مزاج من الجد والهزل لاتخلص لأحد الأمرين . قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه : مارأيت كالليلة جداً وهزلا، وقسوة ولينا ، وعبثاً وفلسفة . ومضى صاحب الشرطة أمامه يتبعه توفيق والغلام

يتبعهما ، حتى إذا مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب ،ثم أدار فى الباب مفتاحاً فانفتح له ثم دخل وقال لتوفيق اتبعنى ياسيدى . فلم يكد توفيق يخطو أمامه خطوات حتى ارتد مسرعاً وقد أشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعاً على أنفه وفمه . قال صاحب الشرطة : اتبعنى ياسيدى . قال توفيق الى أين ؟ قال صاحب الشرطة الى الصيد! قال توفيق أى صيد ؟ قل الى الموت : ماهذه الريح الكريهة القاتلة ؟ قال صاحب الشرطة وهو يضحك ! إنها الريح التى تحبها وتكلف بها، ريح الجبن. قال توفيق: الجبن! لقد أكلت منه حتى عفته، فمالى وللجبن، وأين يكون الجبن من الصيد ؟ قال صاحب الشرطة وهو يلح فى رفق : اتبعنى ياسيدى واعلم أن المزاح فى قصر شهر زاد لايكذب أبداً . أنسيت البيت الذى استهواك منذ حين :

أقل ما فى أقلها سمك

قال توفيق :

يسبح فى بركة من العسل

قال صاحب الشرطة، هذا كلام تقرؤه فى ديوان المتنبى مع صديقك طه حسين . وكنت خليقاً أن تصطاد سمك السكر واللوز من بركة العسل لولم تخالف عن أمر شهر زاد . فأما وقد فعلت، فستصطاد الفسيخ والرشال والسردين من بركة المش. ثم أحس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه الى الأمام، ونظر فاذا هو قد شد الى كرسى من الخشب وأجلس الى حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدر كريه ويلعب فيه سمك مختلف الألوان والأحجام . وإذا أداة الصيد فى يد توفيق، وإذا صاحب الشرطة يقول له فى أناة وهدوء، تستطيع أن تلهو بالصيد حتى نأتيك. ثم ينصرف عنه وينصرف عنه الغلام . ويهم توفيق أن ينهض ليتبعهما فلا يستطيع لأنه قد شد الى كرسيه شداً . على أن محنته هذه لا تطول، فقد اصطاد سمكتين أو سمكات، وكان كلما أخرج واحدة منها وهم أن يخلصها من السنارة وثبت اليه هذه تعلق بأنفه ، وهذه تعلق بخده ، وهذه تعلق باحدى أذنيه ، وإنه لفى هذا الكرب العظيم والعذاب الأليم ،

وإذا ضجيج يسمع من بعيد ثم يدنو شيئاً فشيئا ثم يعظم حتى يملأ الجو ، وإذا صاحب الشرطة يقبل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقاً وقد خارت قواه ويسعون به مسرعين الى حيث يلقونه إلقاء فى هذه الحجرة التى تهاجمها الأشباح وتقوم دونها الجنود السود . وقدأدركته شهر زاد وأنامعها ولم يبق فيه إلا رمق من حياة، فلم تكد الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الأشباح ناحية وأقاموا مع ذلك ملحين يطلبون رأس هذا الأسير الذى أساء اليهم فى أنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ، ويقسمون لايريمون حتى يبلغوا منه مايريدون . قالت شهر زاد فى صوت كأنه حديث الورد النضر ، إن كنت قد سمعت للورد النضر أو الذابل حديثاً ، عودوا الى مكانكم من القصر، فسيكون لى معكم حديث، ولكم على ألا تنصرفوا إلا راضين .

سمع الأشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب، فانصرفوا فى أناةوهدوء، وهمت شهرزاد أن تعود

أدراجها ، ولكني قلت لها مستعطفاً: والأسير ياسيدتي؟ ألم يأن لك أن ترديه الى ما أنت أهل له من العفو والفضل ؟ قالت بلى ، ولكن بعد أن يأخذه الفتيات الحسان فيصلحن من أمره ويعدنه الى كما أريد أن يكون . وما أتمت هذه الجملة حتى أقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخذيات يسعين على استحياء ويخفضن رؤوسهن ذلا وانكساراً . فأخذن توفيقاً وأحطن به وانصرفن معه الى الحمام .

وتعود شهر زاد وأنا معها الى حيث كنا نأخذ فيما كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الأسير البائس، ونلتمس الحيل والوسائل الى استنقاذه من هذه الأشباح الضارية والأرواح الباغية، وأنا أهون الأمر على شهرزاد وأؤكد لها أن الزمان قاض عدل حازم لا يعرف الضعف ولا الظلم الى نفسه سبيلا، تتغير الأشياء من حوله وتتبدل الظروف وتلتبس أخلاق الناس، ويتنكر الأحياء للأحياء، ويتنكر الأموات للأموات والأحياء أيضاً، تنقضي الدول وتقوم مكانها دول أخرى، وتثل العروش وتبنى مكانها عروش

أخرى، ينتظم أمر الناس ويضطرب، وتجتمع كلمتهم وتفترق، والزمان كما هو ثابت مستقر لايحول ولايزول . وإن توفيقاً لم يقدم على ما أقدم عليه حين كتب قصته إلا وهو عالم بما يأتى ومايدع، مقدر لما سيلقى من نقد، متهيء لاحتمال ماسيتعرض له من تبعات، وهو قد ثبت للأحياء فليس عليه خوف من الأموات . وإنا لفى هذا الحديث وإذا شهرزاد تبعث من فمها الظريف الدقيق آهة الفرحة المرحة المبتهجة الطروب ، فقد انفرجت الأستار الجانبية عن توفيق الحكيم وهو أجمل منظراً وأبهى طلعة مما يستطيع أصدقاؤه أن يتصوروا مهما تذهب بهم الظنون .

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا أنفقن من جهد وماذا سلكن من حيلة ليردن توفيق الحكيم الى شهر زاد شاباً وسيما أنيقاً رائع الجمال . ومن يدرى لعله يقص عليك سيرته معهن أو سيرتهن معه حين يكتب مذكراته فى يوم من الأيام .

فى حضرة شهرزاد

ألقى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى ، وإذا عيناه تقعان على شهرزاد الجميلة بين وسائدها الحريرية الموشاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم ، وقد مثل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق فى ثوبه المزركش ووجهه الوضاء كأنه القمر . فما تمالك الأسير أن صاح : يا للعجب ! طه حسين هنا أيضاً ، حليقاً رشيقاً ، وسيما أنيقاً !..

شهر زاد — ينبغى لمن دنا منى أن يكون كذلك

طه — (فى خيلاء) أو يعيش الى جانب شهر زاد إلا من مسته يد الجمال ؟ !

توفيق — كلام جميل ! . . . لكن ماقولكما . . .

شهر زاد — تكلم أيها العزيز !

توفيق — أمن الجمال ما صنع بى صاحب شرطتك يا سيدتى العزيزة !

طه — (يضحك ضحكا قوياً) ماذا صنع بك ؟

توفيق — أتضحك ؟ !

طه — قصّ علينا ماجرى لك بالتمام والكمال .

توفيق — وأنت قص علىّ بالتمام والكمال سرّ هذا الضحك الذى لا أفهم له معنى !

طه — أما أنا فأفهم له معنى بديعاً !

شهرزاد — (باسمة) وأنا كذلك أفهم له معنى رائعاً !

طه — (مترنماً باسماً) :

إن شئت نوماً فعندنا سرر
وثيرة فرشها من القش
أوشئت شرباً فان بيرتنا
تملأ رأس النديم بالوش
أو شئت أكلا فان جبنتنا
لا يأتلى دودها من النغش

توفيق — (وهو كظيم) لا بأس !

شهر زاد — (تستطرد مترنمة باسمة) :

والحب عندى كما اشتهيت له ... بيض عظام قريبة الفقش
حياتنا لو علمت ناعمة ... لم يلقها قط عاهل الحبش
أقل ما فى أقلها سمك ... يسبح فى بركة من المش

توفيق — (فى تقطيب) مرحى ! مرحى ! أرى أنكما على علم واسع بكل ماوقع وكان ...

طه — أمر واحد لا ندرى عنه شيئاً .

شهرزاد — نعم أخبرنا مافعلت بك الفتيات فى الحمام ؟

توفيق ــ فتياتك يا سيـــدتى خليعات وما كان من أمرهن معى ليس مما يحسن ذكره فى حضرة الملكات !

طه ــ (فى ضحكة خبيثة) أكان الماء بارداً أم دافئاً ؟

توفيق ــ كان كل شىء بارداً ! استرحت الآن ؟ واستراحت جلالتها ؟!

شهر زاد ــ وا أســـفاه ! إنك قد غضبت . ونحن لانحب لك أن تغضب ؟

توفيق ــ وماذا تحبين لى ياسيدتى ؟

شهر زاد ــ كل الخير .

توفيق ــ يالك من ملاك طاهر !

طه ــ (فى خبث ومكر) أتتهكم على مولاتنا !

توفيق ــ سبحان الله فى طبعك يادكتور ! انك تلقى الكلمة فتحرج بها المواقف ! وتعقد المسائل ، ثم تقول عنى بعد ذلك إنى رجل معقد !

طه ــ (فى قوة) أناصريح . ألقى كلمة الحق صريحة !

شهر زاد — نعم . وهو يلقيها فى جرأة ولايخشى فيها لومة لائم . ومن أجل ذلك أحبه .

توفيق — هنيئا لك به ! وهنيئاً له بك !

شهر زاد — عجباً من العجب ! أدرك بين نبرات صوتك . . .

طه — وأنا أيضا أدرك . . .

توفيق — ماذا تدركان أيها الصاحبان المتفقان ؟!

شهرزاد — نبرة تنم عن غيرة خفية إذ قلت إنى أحبه !

توفيق — دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذى لاتحذقه غير المرأة !

طه — (صائحاً) استغفر الله ! استغفر الله !

شهرزاد — (لطه) دعه ! فان عداوته للمرأة سوف تكلفه مالا يطيق .

طه — أريد أن ألقى كلمة حق صريحة ولكنى أخشى أن يقول عنى ...

توفيق — (مسرعا) إياك أن تلقى شيئاً . أهون على

نفسى أن ألقى انا فى بركة «المش» مرة أخرى من أن تلقى أنت فى أمرى كلمة حق ، أو أن تلقى أمامى شهرزاد كلاماً فى الحب والغرام !..

شهر زاد — ياصديقى ! أود لو أفضيت الى بسر . . .

توفيق — ليس عندى سر .

شهر زاد — هذا الفتور والنفور بينى وبينك اليوم ؟

طه — ما من سر غير أنه مثل أغلب الشعراء وأهل الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها !.

شهر زاد — (لتوفيق) أستبكينى غداً ؟ !

توفيق — (يصمت ثم يفكر قليلا وينظر الى شهرزاد قليلا ويهمس) ربما ، إنى من فصيلة لاتغرد الا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع !

شهر زاد — نعم، هو مرض الشعراء والفنانين ! وان شئت فهو ناموسهم الطبيعى . كم أرثي لأولئك الأشقياء البائسين !

توفيق — يعجبنى رثاؤك الحار هذا يا سيدتى ! . . .
توقعين الناس فى البلاء ثم ترثين لحالهم !

شهر زاد — من أوقعت فى البلاء ؟

توفيق — لاأريد أن أبعث الماضى فأذكر لك شهريار وقمرا وغيرهما ممن تتراءى لى أشباحهم اليوم ثائرة علىّ . انما أريد أن أذكر لك رجلا ماثلا أمامك وبلاء لم يمض على وقوعه غير قليل !

شهر زاد — أنت ؟

توفيق — نعم .

طه — أتسمحان لى أن ألقى بكلمة حق صريحة . . .

توفيق — أقسم بالله ثلاثاً إن نطق طه حسين بكلمة حق أو باطل لأقذفن بنفسى من هذه النافذة !

شهر زاد — (لطه) انتظر هنيهة يا عزيزى حتى تهدأ نفس صديقنا !

طه — قد سكت .

شهر زاد — إنك تحسبنى أنا التى أمرت بك صاحب شرطتى ورجالى !

توفيق — وهل فى هذا القصر آمر ناه سواك ؟

شهر زاد — إنك تبالغ فى مقدار أمرى ونهيى !

توفيق — يا للعجب ! أهذا صحيح ؟ !

شهر زاد — ثق أن هذا صحيح . وأنى لم أحب لك كل ما صنع بك . ولو استطعت أن أمنعك وأدرأ عنك لفعلت . قلبى مفعم بالخير والحب . ولكن سلطانى قاصر..

توفيق — أيطلب الى أنا أن أصدق هذا الكلام ؟ أنت الملكة العظيمة ؟ صاحبة الحول والطول ، فى قصرك هذا على الأقل . . !

شهر زاد — ثق أن الملوك بل الآلهة لا يستطيعون دائما أن يصنعوا كل ما يشاءون !

توفيق — وما قيمة ذلك الأله الذى لا يستطيع أن يصنع كل ما يشاء !

شهرزاد — وهل يتصور كون منظم يديره إله يستطيع أن يعبث بكل ما يشاء وقتما يشاء ؟ !

توفيق — (يلتفت الى طه) ما رأيك يا صديقى الدكتور ؟

طه — عجباً لك ! الآن تطلب الى الكلام ؟ فى هذا الموضوع الشائك حيث يجب على السكوت !

توفيق — (لشهر زاد) أرجو منك يا سيدتى أن تطلبى الى صديقك الجرىء أن يلقى الآن كلمة حق صريحة !

طه — (لشهر زاد) كلا يا سيدتى العزيزة لا تفعلى . إنى الآن عميد مسؤول . ولا شأن لى بالكلام فى الأديان والآلهة ، وحسبى ما حدث لى قديماً ...

شهر زاد — (لطه باسمة) يظهر أن صديقنا ليس ساذجا الى الحد الذى نظن .

طه — قلت لك إنه معقد .

توفيق — (لطه) أ أنا معقد لأنى طلبت رأيك فى موضوع دقيق .

طه — أسنعود اليه ؟ رجائى الخالص منك أن تترك آلهة الأغريق والرومان وشأنهم !

توفيق — إن شهر زاد هى التى ذكرت الآلهة . وما أردت منها الا أن تذكر لى صاحب الأمر الأعلى فى هذا القصر .

طه — نعم ، تكلما فى شؤون هذا القصر .

شهر زاد — فى هذا القصر وفى غير هذا القصر ، هنالك سلطان أعلى يخضع له كل كائن حى وغير حى ، وكل خالق وكل مخلوق .

توفيق — من هو هذا السلطان ؟

شهر زاد — القانون .

توفيق — وأى قانون هذا الذى أمر بتعذيبى اليوم ؟

شهر زاد — قانون القصر .

توفيق — ومن سن هذا القانون ؟

شهر زاد — أنا .

توفيق — وتخضعين له ؟

شهر زاد — لا مناص لى من الخضوع ، والا اختل نظام القصر وحلت فيه الفوضى .

توفيق — يا للعجب ! أعرف حكومات شتى تسن القوانين ولا تخضع لها . . .

طه — حقاً . أذكر أن قوانين الجامعة . . . (ثم يسكت فى الحال)

توفيق — تكلم !

طه — كلا . لاشىء . . .

شهر زاد — (فى سخرية) نعم إن البشر لهم هذا الامتياز على الآلهة . فهم يستطيعون أن يعبثوا بالقوانين التى يسنونها . أما الآلهة فلا يستطيعون مطلقاً أن يحيدوا قيد أنملة عن النظام الذى وضعوه والقانون الذى خلقوه !

توفيق — (فى اعجاب) إنهم آلهة !

شهرزاد — وبعد ؟ أرأيت ياعزيزى كيف أنى بريئة مما ألمّ بك ، وأن قلبى لا يمكن أن يحل فيه غير الحب والصفاء !

توفيق — وأن ما نزل بى هو من فعل القانون ؟

شهرزاد — هو ذاك .

توفيق — ربما كنت صادقة . إنى دائما يخيل إلىّ أن العظمة فى عليائها لا تعرف غير الصفاء . ولا أتصور خالقا ينظر إلى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق !

طه — هذا كلام طيب . وما دمنا فى صدد الصفاء ، فما يمنعنا الآن من أن نعمر قلوبنا به . وأن يقبل أحدنا على الآخر باسم الثغر صادق الود .

شهرزاد — لا أحب إلى نفسى من هذا !

توفيق — وأنا أيضا . . لا أحب إلى نفسى منه .

شهرزاد — (فى فرح) حتى أنت ! ؟ ! . لا أصدق ما أسمع .

توفيق — يا للعجب ! ما ظنك بى ؟ أترينى بهذا المقدار انسانا لا يعرف الود ؟ !

شهرزاد — كدت أظن هذا .

طه — أ ألقى كلمة حق صريحة ؟ !

توفيق — الق الآن ما شئت .

طه — إنى أعرف توفيق الحكيم أحفظ الناس للود . . .

توفيق — أتتهكم ؟

طه — (مأخوذاً) سبحان الله ! احكمى يا سيدتى بالعدل ! أأنا تهكمت الآن ؟ ؟

شهرزاد — على النقيض . إن فى صوتك صدقا واخلاصا .

توفيق — (فى خجل وندم) إنى آسف . لقد أسأت الظن بصديق . ولم أصدق ذلك القول منه .

شهرزاد — لو عرفت ما يصنع صديقك من أجلك . إنه لم ينقطع عن التفكير معى فى التماس الحيل وتدبير الوسائل إلى استنقاذك من هذه الأشباح الثائرة عليك .

توفيق — أهو صنع هذا ؟

شهرزاد — إنه فعل أجمل من هذا . إنه رأى اقناع الأشباح بالامتثال إلى حكم « الزمن » فيك . وهو واثق

أن كلمة هذا القاضى ستنصفك وتنصرك عليهم جميعا .

توفيق ــ وإذا لزم الزمن الصمت ولم يتكلم فى أمرى بخير أو بشر ؟

شهرزاد ــ إنه قد دعى إلى الكلام والحكم ، فى مجلس تحضره أنت ويحضره المطالبون برأسك والشهود العدول وقد وعد بالكلام والحكم فى الأمر .

توفيق ــ المطالبون برأسى !

شهرزاد ــ أو لا تعرف أنهم طلبوا رأسك !

توفيق ــ وما ذنب رأسى ! أخزاهم الله !

شهرزاد ــ ألم يخرجوا منه ! انهم يريدون تحطيم المكان الذى خرجوا منه على تلك الصورة التى لا ترضيهم ؟!

توفيق ــ وكيف يحطمونه !

شهرزاد ــ « الجلاد » قال إنه سيتولى ذلك فهى مهنته .

توفيق ــ ذلك « الجلاد » العاطل !

شهرزاد ــ ان أمرك الآن رهن هذه « القضية »

طه — انها ستكون قضية « الفكر والأدب »

شهرزاد — ينبغى أن تستعد للدفاع عن نفسك .

توفيق — والقاضى . . .

شهرزاد — قلت لك هو « الزمن »

طه — أظنك لا تطمع فى أعدل منه !

توفيق — ومتى يوم المحاكمة ؟

شهرزاد — لم يحدد بعد . فقد رآى القاضى أن يبدأ بدرس موضوع القضية . وقد طلب نسخة من «الكتاب» فأرسلت اليه .

توفيق — كل هذا عجيب . وكل هذا لم يكن فى الحسبان. أنا الذى جاء إلى جبال سافوا طلبا للراحة والهدوء ؟

طه — اصبر ! لئن حكم « الزمن » لك فأي انتصار يكون وقتئذ للفكر وحرية الفكر ! وعند ذاك ننشر هذا الحكم فى « الجهاد » و « الأهرام » معلنين انتهاء عهود الظلام وابتداء عهد النور !

توفيق — وإذا حكم بتسليم رأسى إلى ذلك الجلاد

الذى باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القنب ويؤمه أنصاف المجانين !

طه ــ كلا . إن إيمانى كبير بحكمة هذا « القاضى » توفيق ــ وأنا . . . مع الأسف . . .

ولم يتم توفيق الحكيم عبارته . فقد هبت فجأة ريح عاصفة خلعت أستار النافذة ودخلت القاعة محملة بغبار كثيف فى لون الرماد ، ألقته على فرش « شهرزاد » كما يلقى الشىء . ثم خرجت الريح من حيث جاءت وهدأ المكان كأن شيئا لم يحدث قط . ونظرت شهرزاد إلى فرشها . فاذا الرماد عليه قد اتخذهيئة الخطوط والحروف وإذا هى رسالة تقرأ موجهة اليها . فطالعتها بأمعان ثم صاحت :

ــ تلك رسالة من « الزمن » !

طه ــ (فى جد واهتمام) ما ذا يقول فيها . ؟ .

شهرزاد ــ (فى كآبة) واحزناه !

طه ــ (فى قلق) بحقك ما ذا ؟

شهرزاد — إنه لا يريد أن يبقى المتهم طليقا . ويعلن أنه سيأمر به فيحبس حبسا احتياطيا حتى يصدر فيه الحكم .

توفيق — (لطه متهكما) أرأيت « حكمة » هذا القاضى الذى جئتنى به !

شهرزاد — صبرا ولا تخف !

طه — (لشهرزاد) وأين يكون الحبس ؟

شهرزاد — فى مكان لا يعرفه غير « القاضى »

طه — وكيف يقاد المتهم إلى ذلك المكان ؟

شهرزاد — ربما أمر به الزوابع فاختطفته !

توفيق — (صائحا) خطف آخر ! . حرت والله وكدت أجن لأمر هذا الخطف . ألا يعرفون وسيلة أخرى فى هذا المكان غير هذه ! إذا طلبت للمسامرة أخطف ، وإذا طلبت للمحاكمة أخطف ! ألا نكون فى أمر يكاد دون أن نعلم ؟ !

القنوط على توفيق الحكيم

قلت وقد نهضت متثاقلا كئيباً، فهل تأذنين لى ياسيدتى فى أن أودعك الآن لا قالياً ولا ساسالياً . قالت فى هذه السرعة وما يعجلك . قلت فأن لى يا سيدتى أهلا ما ينبغى أن تطول عنهم غيبتى . قال توفيق فى غضب وخبث وعملا ما ينبغى أن يطول إهمالك له . قلت فى ضحك ورثاء هو ذاك . قالت شهر زاد نعم هو ذاك، إن لأهلك عليك حقاً

وإن لعملك عليك حقاً ، فأما الذين ليس لهم فى فرنسا أهل ولا عمل .. قال توفيق : فمن الممكن أن يخطفوا وأن يسجنوا وأن تلح عليهم المصائب وأن تفعل بهم الأفاعيل . قالت شهرزاد وقلت معها ضاحكا هو ذاك . قال توفيق فى صوت محزون تكاد تخنقه العبرة : لست جاداً فيما تعزم عليه من الانصراف . قلت كل الجد ، وإنك لتعلم أنى لا أستطيع البقاء ، ولست أدرى فيم حرصك على بقائى . قال أما أنا فأعلم فيم حرصك على الانصراف ، إنما تريد أن تتركنى وحيداً أقاسى ما أقاسى من الجهد وأحتمل ما أحتمل من الهم وألقى ما ألقى من العناء . قالت شهرزاد : شكراً لك ياسيدى ما أعرف أدباً أجمل من هذا الأدب ولا ظرفاً أرق من هذا الظرف . قال توفيق مرتبكا : سيدتى إنك لتسيمينى ما لا يسام ، ولست أفهم كيف تنتظرين الأدب والظرف من رجل مثلى قد صبت عليه المحن ، مخطوف يراد به الخطف ، وسجين يراد به السجن ، وأسير كان يطمع فى حريته فاذا أقصى آماله سجن جديد لا يعرف أين يكون ولا كيف

تكون حاله فيه. قلت هون عليك فلست أرى بك بأساً، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التى أنا فيها ولأرجأت التفكير فى الخطر إلى وقت وقوع الخطر. قال فانى لا أعلم أقريب هذا الخطر أم بعيد، وإن ما أنا فيه الآن لهو الخطر كل الخطر، أو تظننى قد عرفت حقاً أين أنا وماذا يراد بى ومتى أنا راجع الى ما كنت فيه. وتفضلت شهرزاد فشيعتنى إلى باب غرفتها وهى تقول فى صوتها المشرق الذى يغرى بالبقاء لا بالانصراف «إلى اللقاء» وإلى اللقاء القريب. أليس كذلك؟

وألقيت من دوننا الأستار وقد أسرع إلى صاحبى فالتفت إليه ضاحكا وأنا أقول ما ينبغى أن يرانى الناس ولا أن يرانى أهلى فى هذا الزى الغريب. قال صاحبى دهشاً: أى زى. وهممت أن أتكلم ولكن دهشى لم يكن أقل من دهش صاحبى حين نظرت فاذا أنا فى زيي القديم الذى دخلت به القصر من تلك الفجوة لا أعرف كيف عاد إلى ولا أذكر كيف نزعت عنى زينة الاستقبال. وأريد أن أسأل صاحبى دهشاً عن سر هذه الفتنة التى

لا أعرف أولها ولا أعرف آخرها فأنا أذكر كيف خلع على ذلك الرداء الجميل الذى لقيت به شهرزاد ولا أعرف كيف خلع عنى ، وأعرف كيف خرجت من زيى القديم منذ حين ولا أعرف كيف دخلت فيه الآن، ولكن الفتاة الجميلة الرشيقة تدنو منى فى دعابة وظرف وهى تقول : لا بأس عليك يا سيدى فان الزى الذى تلقى به شهر زاد لا ينبغى أن تلقى به أحداً غيرها ، ولا تنس أنك فى القصر المسحور . وأبلغ الفندق بعد لحظات فاذا أنا أستقبل فى كثير من التجهم وغير قليل من السخط والاعراض . فلم تتعود أسرتى أن تفتقدنى فلا تجدنى، ولا أن ترانى أغيب عنها دون أن أنبئها بعزمى على الغيبة وبالغرض الذى أنا قاصد اليه والمكان الذى تستطيع أن تلتمسنى فيه . وأنا أريد أن أتحدث اليها بجلية الأمر وأنبئها بحقيقته ، وهذا لسانى يتحرك فى فمى يريد أن يأخذ فى بدء الحديث ولكنى أرده الى الصمت والسكون مشفقاً من العاقبة التى لا شك فيها وهى ضحك الصبيين وإغراقهما فى الضحك

وإشفاق زوجي وإلحاحها فى الاشفاق مما أقول . هم جادون فى غضبهم ولو قصصت عليهم الأمر من أوله لأنكروه، ولرأوا أنى أهزل حين يجدون وأتكلف حين يتبعون طبيعتهم ، ولظن الصبيان أنى أعللهم ببعض هذا القصص الذى كنت أعللهما به أثناء الطفولة حين كانا يصدقان كل ما كان يقال . ومن لى الآن بأن يصدق هذان الصبيان — وهما ينكران مايريان — وأن تصدق أمهما قصة هذا القصر المسحور الذى يقوم عند قمة من قمم الألب، وقصة اختلافى اليه واشتراكى فيما يقع فيه من الأحداث. كلا ماينبغى أن أحدثهم بشىء من ذلك فلن يزيدهم هذا الحديث الا غضبا واشفاقا ، ولعله يدفع هذين الصبيين الى أن يظنا بأبيهما الظنون ويريا أنه من العجز والقصور بحيث لايستطيع أن يعلل غيبته بعللها الصحيحة الواضحة ، فهو يتكلف لها ما يتكلفه الأغرار من الحيل والمعاذير . فأنا اذن أجتهد فى المداورة وأحيد عن القصة كلما دفعت اليها ، ولكن الأمر يتعقد فجأة فهم يسألوننى

الكاتب الكبير

توفيق الحكيم

عن صاحبي توفيق ما خطبه، أو أين ذهب أو كيف مضى على وجهه هكذا دون أن يودع قوماً كان معهم أو ينبئهم بمذهبه أو يستأذنهم فى الرحيل . فاذا زعمت لهم أني لا أعرف من أمره شيئا أنكروا هذا كل الانكار ولاموني عليه كل اللوم ، وزعموا أنى مقصر فى ذات الصديق تلم به الأحداث فلاأحفل به ، وينزل به المكروه فلا أسأل عنه ، ومن يدرى لعله استجاب لهذه الخزوانة التى تعرض له فخيل اليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل فى ساعة أو ساعات كما كان يقول، ولعله هم بذلك فمضى لطيته ثم اختلط عليه الأمر وتقطعت به الأسباب فهو لايدرى كيف يعود . ولعله تعرض لأكثر من هذا من الشر فهوى الى قاع سحيق أو غمره هذا الثلج الذى تثيره الريح فى أعلى الجبل أو زلت به قدمه فهو صريع يستغيث ولا يجد له مغيثاً . لابد اذن من إنباء الفندق بأمره ثم من إنباء الشرطة ثم من إرسال الرسل يلتمسونه فى كل وجه فهو لم يرتحل قاصداً الى الرحلة. وهذه غرفته كما تركها

فيها أثاثه كما تركه . وهم يهمون أن ينبئوا الفندق والشرطة كما أرادوا وأنا أحاول أن أردهم عن ذلك وأكاد أنبئهم بأمر القصر المسحور ، ثم تصدنى عن ذلك بقية من حياء فأزعم لهم أن صاحبنا غريب الأطوار وأنه خليق أن يكون قد عاد إلى باريس كما أقبل منها لم يفكر ولم يقدر ولم يتخذ لذلك أهبة ولم ينبىء به أحداً ، والخير فى أن ننتظر لعله أن يعود الينا أو لعل أنباءه أن تبلغنا بعد حين ، وأنا ألح فى وصف أطواره الغريبة وأحواله المختلطة وتصرفه فى الغربة على غير نظام حتى أكاد أقنعهم بأنه رجل شاذ كل الشذوذ ، لا ينبغى أن ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الناس ، فاذا فرغت منهم بعد جهد ولأى ، أقبلت على العمل الذى أهملته فأطلت إهماله ، وإذا أنا أمضى فيه وإذا هو ينسينى توفيقا وأنباءه ويكاد ينسينى شهر زاد ، ولكنى أتلقى هذا الكتاب على النحو الذى تعودت أن أتلقى عليه الكتب فى هذا الصيف .

شكوى شهرزاد

« من الحق ياسيدى أنك لم تكن قالياً ولا سالياً حين ودعتنى ، فقد طالت غيبتك عنى وما أرى إلا أن النسيان الآثم قد ضرب بينك وبينى أستاراً . ولولا بقية من الثقة بك لعتبت عليك، ولولا فضل من حسن الرأى فيك لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لى أن شاعرك ينسيك حتى شهر زاد ، وقد كنت أظن أنى لم أنعم بالخلود وحده وإنما نعمت به وبالشباب أيضاً ، ولكن شيئاً من الشك قد أخذ يعترضنى ويشغل بالى منذ أخذت أحس

غموضاً فى بعض الأشياء واختلاطاً لبعض الأمر وقصوراً عن تفسير ما يقع حولى من الخطوب فأنا لا أفهم فيم طالت غيبتك وقد كنت أظن بك الحرص على لقائى ولا أفهم فيم انقطعت أنباؤك وقد كنت أنتظر منك الحرص على أن تتصل بينك وبينى الأسباب ، وهنـاك أمر آخر لا أستطيع أن أفهمه ويسوءنى حقاً أن أشعر بعجزى عن فهمه وتاويله وهو أمر هذا السجين المسكين ، فقد تركته عندى حائراً متولهاً لا يدرى ماذا يريد ولا ماذا يرادبه ، وقدرجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف عليه أريد أن أواسيه أو أسليه أو أتوجع له كما يقول الشاعرالقديم ولـكنى لم أكد آخذ معه فى الحديث حتى أقبل الأسود ينبئنى بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد أقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على أن يتبعهم ، فاذا سمع ذلك ضاق به أشد الضيق وامتنع عليه أشد الامتناع وجثا بين يدى خائفاً وجلا وعائذاً لائذاً يسألنى أن أجيره ويتوسل إلىفى أن أحميه ، وهويزعم لى أنه قد عرف القصر المسحور

أو عرف بعضه وبلا آلامه ومحنه أو بلا بعضها، وهو يؤثر ما يعرف على ما لا يعرف ويفضل ما بلا على ما لم يبل. وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه فى كنف وفى ظل آمن أن ينتهى به المكروه إلى أكثر مما يطيق أو أبعد مما يحتمل. ولست أخفى عليك أن قلبى قد رق له وإن كان قلبى قد عاهدنى على ألا يرق لأحد. فأخذت أهدىء من روعه وأهون الأمر عليه ثم طمعت وأطمعته فى أن أخرجه من هذه المحنة وأحميه من غوائل الزمان وقلت للأسود اذهب فقل لهؤلاء النفر إن شهر زاد تجير هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان. وما سمع ذلك حتى انكب على قدمى يقبلهما فى حرارة وسعادة وفى أمل ورضى، وأنا قد دبرت أمرى تدبيراً وأحكمته الاحكام كله، وأزمعت أن أدخل هذا الأسير فى ذلك البهو الحرام من القصر. ذلك البهو الذى لا يدخله ولا يخلص اليه أحد غيرى ولا يستطيع الزمان أن يتجاوز ما يلقى على بابه من الأستار، وإنى لأدير الأمر فى نفسى وآمر أسيرى

بالنهوض فينهض مشرقا مغتبطاً وأنا مطمئنة آمنـــة أن يدخل هؤلاء النفر على قبل أن أمضى ما شرعت فيه . فما استطاع أحد قط أن يدخل على شهر زاد دون أن تأذن له فى الدخول، ولكن وا أسفاه واحسرتاه والوعتاه، هذه النافذة تفتح ولست أدرى كيف فتحت ولا من فتحها، وهذا الفتى ينتزع من بين يدى ويعلق فى الهواء تعليقاً ويدفع فيه دفعاً بطيئاً وهو موله مدله قد فقد صوابه وغاب عنه رشده وهو يرسل إلى نظرات فيها التوسل والتضرع والاستعطاف . وأنا واجمة أول الأمر ثم غاضبة لهذا الحرم الذى اعتدى عليه ، ثم ثائرة لهذا الجوار الذى استبيح وأنا أسعى إلى الأسير أريد أن أستنقذه من هذه الأيدى الخفية التى تعلقه وتسعى به فى الهواء ولكنى لا أكاد أبلغه حتى يدفع دفعة عنيفة وإذا هو قد خرج من النـافذة ومضى فى الجو كأنه السهم . هنالك رجعت كئيباً كاسفة البال تكاد تنحل قواى ، لولا أن قواى لا تعرف الانحلال ، فآويت إلى مجلسى أو إلى مضجعى

الذى تعودت أن ترانى مستلقية عليه . وجعلت أفكر فى هذا الأمر الذى أعرف أوله ولا أقدر آخره . وأنت تعلم أن قد كانت بيننا وبين الزمان فى العهود القديمة جداً حرب ضروس كاد يمحقنا فيها محقاً لولا أننا انتصرنا عليه بالحيلة واضطررناه أن يمضى بينه وبيننا صلحا قوامه أن له منا المسالمة ولنا منه الخلود ، فالزمان كما تعرف يأكل أبناءه جميعاً ، وقد كان يريد أن يأكلنا فيمن أكل ولكنا أفلتنا من شباكه وأكرهناه على أن يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم . أفتراه قد ألغى ما بينه وما بيننا من صلح ونقض ما أعطى على نفسه من عهد ، أفترانا مضطرين إلى أن نعيد الحرب بيننا وبينه جذعة وأن ندك الأرض والسماء دكا فاما انتصر علينا فأكلنا فيمن يأكل ، وإما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والاغلال . أفتراه اتخذ هذه القضية التى لجأنا اليه فيها عن رأيك ومشورتك الى إفساد الأمر بينه وبيننا ورد الحياة كما كانت قبل أن يعرف القانون والنظام. أم ماذا ؟ ماهذا السجن الاحتياطى الذى يفرضه على رجل

مسكين من الناس ليس له حول ولا طول بازاء سلطان الزمان الذى لا حد له ؟ ممّ يريد أن يحتاط ولمن يريد أن يحتاط ؟ أفترانى فى حاجة إلى أن أثير إخوتى جميعا من قصورهم حيث ينعمون كما كنت أنعم بالراحة الخالدة والهدوء المتصل لنستأنف بين الزمان وبيننا صراعا كنا نظن أنه مضى إلى حيث لا يعود ؟ لا تغضب ياسيدى ولا يثقل عليك قولى ، لقد أحسست شيئا من الندم على هذه الفرصة التى أتاحت لى الأتصال بك وبصاحبك ، فما عرفت أننا نجنى من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيرا . وإني لأخشى أن يكون لقاؤنا هذا الصيف نذيرا بشر لا نقدر عواقبه ولا يقدر الزمان نفسه عواقبه . أسرع إلى وأشر على فقد اختلط الأمر أمامى أشد الاختلاط وويل للخالدين حين يدبرون أمرهم مع الهالكين . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، لقد بدئت القصة فيجب أن تنتهى . ماذا كتبت اليك ؟ أخشى أن أكون قد آذيتك وتحدثت إليك بما لا تحب ، ومع ذلك فما أردت بك شرا

ولا قصدت إلى ماتكره ، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل فقد ألممت بسيرتنا فى الزمان الأول ، وعرفت ماذا بلونا من الناس وماذا بلا الناس منا . وما أيسر العلم بذلك لك ولغيرك لو تقرأون ماتسمونه الأساطير .

معذرة اليك ياسيدى ، أسرع إلى وأشر على ، فما أرى إلا أننا قد استقبلنا عهدا جديدا سنستأنف فيه حياتنا الأولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا فلتعن الأقدار كلا على كل كما قال الخطيب العربى القديم . وإلى أن أتلقاك أو أتلقى ردك على أرجو أن تقبل ياسيدى تحية المحزونة المشوقة اليك » .

شهرزاد

مؤاساة شهرزاد

سيدتى :

بعض هـذا الفزع والجزع ، وبعض هـذا اليأس والقنوط ، فقد روعنى كتابك حقا وأذهلنى عما كنت أضطرب فيه من شؤون الحياة . ولئن كنت عاتبة على ياسيدتى لأنى قد غبت عنك فأطلت الغيبة ، فأنى عاتب عليك لأنك قد روعتنى فأسرفت فى ترويعى دون أن يكون فى الأمر مايدعو الى بعض هذا الاضطراب،فضلا

عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتى الطويلة ، فقد آمنت لى ياسيدتى بأن لأهلى على حقا وبأن لعملى على حقا ، أفتمنحين باليمين وتستردين بالشمال ؟ ولئن طالت غيبتى عنك ياسيدتى فما طالت عن رغبة ولا عن رضى ، ولكنا نتشبه بك وبأترابك الخالدين . فنرى أن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب [redacted] لا نهسنا أن نتجاوز حدود هذه القوانين أو أن [redacted] من أمرها . ولقد زعمت لصديقنا الأسير البائس [redacted] ملوك الناس وأصحاب السلطان أقدر منك على تغيير [redacted] يشرعون من قوانين ، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمات ، وأنك على خلودك وسلطانك الذى لا حد له عاجزة عن تغيير ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون ، فنحن ياسيدتى نحب هذه الرعاية للقانون المشروع ، ونكره الخروج عليه ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ، ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نرى للحياة حقها فنى حين يجب الوفاء ونخلص حين يجب الاخلاص

ونعمل حين يجب العمل، لا نؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولا بلقاء الأحباء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الأحباء. أفتنكرين علي ياسيدتي ما تعرفين لنفسك وماتحبين أن نحمد لك من السيرة والخصال. إني لأعلم أنكم معشر الخالدين تتهموننا نحن معشر الهالكين بكثير من الغرور والكبرياء، ترون أنا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا حين نتأثركم ونسير سيرتكم ونحاول أن نرعى القوانين كما ترعونها وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا، يتهموننا نحن العقليين بالفلسفة والشذوذ، والفلسفة والشذوذ عندهم يؤديان ماتؤدونه أنتم حين تذكرون الغرور والكبرياء. فنحن حائرون ياسيدتي، نتأثركم فتغضبون علينا وتسخطون منا لأنا نطمع في غير مطمع، ونتأثركم فينقم الناس منا ويضيقون بنا لأنا نخرج عما يحبون ويألفون. ولو أننا أعرضنا عن تقليدكم ومضينا مع الدهماء فتبعنا الهوى وأطعنا الغريزة وخرجنا كما يخرجون على

قوانين الحياة والواجب لغضبتم علينا ولأنكرتمونا ولألحقتمونا بالعامة وصببتم علينا مثل ما تصبون عليهم من المقت والازدراء . هل لك ياسيدتى فى أن تنبينا نحن المفكرين البائسين كيف نصنع لارضائكم فانا قد يئسنا من إرضاء الناس ؟ أفترين أننا سنيأس من إرضائكم أيضا وسننتهى إلى ما انتهى اليه جماعة من الأفذاذ النادرين ، فنرى أن العقل خليق أن يستغنى بنفسه وأن يتمرد عليكم وعلى الناس جميعا ، وألا يحفل إلا بأن يرضى هو وما أقل مايرضى . لقد طالت غيبتى عنك ياسيدتى وما أحببت ذلك ، ولوطاوعت نفسى لرغبت اليك فى أن تخطفينى كما خطفت أسيرك البائس وفى أن تمسكينى عندك وترصدى لى العيون والأحراس حتى لا أتجاوز بابا من أبواب قصرك المسحور . ولكن ماذا أصنع ولأهلى على حقوق ، ولعملى على حقوق ، وللذين أعرفهم والذين لاأعرفهم من الناس على حقوق . إنما حظى من لذة القرب منك والاتصال بك حظ مقدور لم يتح لى إلا بين حين

وحين ، حين يأذن لى القانون الذى أخذت نفسى به أن أنعم بهذه اللذة وأستمتع بهذه الحياة الحلوة . فاشفق على ياسيدتى من هذا الحرمان وارحمينى من هـذا القصور ولاتتهمينى بالأهمال والتقصير ، ولاتسمعى فى وشاية مهما يكن مصدرها وإن كان هو أسيرك العزيز عليك وعلى معا .

على أنى أعود ياسيدتى فأستأذنك فى الرثاء لك والاشفاق عليك ، وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها وتكشفت عما لم أكن أنتظره ولا أرجوه ، فكيف أصدق أن شهر زاد الخالدة التى لاحد لقوتها وسلطانها تحتاج إلى أن يرثى لها ويشفق عليها ضعيف هالك مثلى . يظهر أن نظام الكون قد تغير أو أنه آخذ فى التغير . ماذا تشكين فى قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك ، وأنت التى تمنح أمثالنا القوة والسلطان والذكاء ، ولكن ماذا أنكر وقد انتهينا إلى عهد لاينكر فيه شىء ولايعرف فيه شىء . قد اضطرب كله ، فالمطر ينهمر فى أوقات

الصحو ، والصحو يشرق فى أوقات المطر ، وقد أصبح الصيف شتاء والشتاء صيفا، وقد انقلبت الأوضاع واضطربت النظم واختلط كل تقدير وتدبير ، ولو أن لعقولنا بقية من الثقة بنفسها لما شككت فى أن الحياة قد عادت كشأنها يوم خلق الله السموات والأرض ، وفى أن ما بلغنا اليه من رقى قد استحال إلى تراجع وانحطاط . ولكن لنتدبر أمرنا يا سيدتى ولنستقبل ما يعرض لنا بشىء من الحزم والعزم ومن الأناة والتفكير . ما هذا الخوف الذى يملأ نفسك الخالدة ، وما إشفاقك أن يكون الزمان قد عاد سيرته الأولى وأراد أن يعيد الحرب بينكم وبينه جذعة ليأكلكم كما يأكل أبناءه الآخرين ؟ أكل هذا لأنه كره أن يموت أسيرك قبل أن يأتى أجله فاستنقذه منك وضمن له حياته ليتم ما يريد الله أن يتمه فى هذا الكون ، فأنت يا سيدتى كنت تريدين أن تقتلى أسيرك لا أقل ولا أكثر ، فهل فكرت فى معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لا يصل إليه ، إنما معنى هذا الموت بل معنى هذا أبلغ من الموت

معناه الفناء الذى لا وجود معه ولا وجود بعده ، فأى شيء نحن إذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته، وأى شيء أنتم إذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته، لقد ضمن الزمان لكم الخلود فى ذلك الصلح الذى أمضيتموه ، ولكنه لم يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه . وهل تعرفين للزمان حدا وهل تعرفين لسلطانه غاية ينتهى إليها ؟. معذرة يا سيدتى ، لقد كنت أظن أنك أنت التى ألهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب .

ولو طار جبريل بقية عمره

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

أترين أبرع أو أروع من هذا فى تصوير سلطان الدهر الذى لا ينتهى وملكه الذى لا حد له . لم يضمن الزمان يا سيدتى فراقه ولا الخروج عن سلطانه ، وإنما ضمن لكم صحبته أبداً وجعل الفرق بينكم وبيننا أننا نحن نأكل وأنتم لا تأكلون ، فقد كنت تريدين يا سيدتى أن تكرهى الزمان على أن يأكل توفيقاً قبل أن يتم نضجه .

أفتغضبين لأنه أبى أن يأكله نيئاً ؟ وما رأيك فيمن يريد أن يكرهك على أن تأكلى من الألوان مالا تحبين ولا تسيغين ؟ إنما نحن يا سيدتى ملك الزمن ينشئنا وينمينا وينضجنا حتى إذا بلغنا حاجته ورضاه أكلنا كما يشاء هو لا كما نشاء ولا كما تشائين. وغريب يا سيدتى ألا تفهمى مِمَّ يحتاط الزمن ولمن يحتاط بحبس هذا السجين، فأنه يحتاط للسجين نفسه أولا، فمن يدرى لو خلى بينه وبين الحرية، لعله أن يكتب كتاباً آخر يسوء به هذه الأشباح الساخطة الصاخبة، فيزيدها غيظاً على غيظ وهياجاً إلى هياج. ويحتاط لهذه الأشباح التى لجأت اليه وقبلت حكمه، فمن حقها عليه أن يحميها من كتاب جديد ويحتاط لك أنت من أن يعود الأسير إلى مايرى خصومه أنه إثم، فيعود هؤلاء الخصوم إلى إثارة الضجيج والعجيج من حولك وإلى الألحاح عليك فى تسليمه، ومن يدرى لعلهم يخرجون عن أطوارهم فيحدثوا فى قصرك حدثا أو يبطشوا بالأسير بطشاً يسوءك فيه ويحزنك عليه.

لا تنكرى إذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتى إن كنت قد رأيته يأتى شيئاً : وهو حكيم فيما يقول إن كنت قد سمعته يقول شيئاً . إنما الخير يا سيدتى أن تطمئنى لقول الزمان وفعله ، وأن تصلحى ما بينك وبينه من الأمر ، وأن تستأذنيه فى لقاء أسيرك من قريب أو البربه من بعيد ، فذلك أنفع وأجدى من ثورة لا تغنى عنك ولا عنه شيئاً . إنما الخير يا سيدتى فى أن تتعجلى نظر الزمان فى هذه القضية حتى لا يطول سجن الأسير ، وحتى تنتهى هذه القضية كما بدأت، فتستريحى ونستريح ويستريح الزمان . وما أرى أنه سيجيبك إلى السرعة فى إنجاز هذه القضية ، فان حياة الناس من حولنا مضطربة كما ترين ، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التى تفسد ما بين الشعوب .

أما بعد فأنى ما كرهت يا سيدتى ، وما ينبغى لى أن أكره شيئاً تقولينه لى أو تسوقينه إلى . فكل شىء يأتى

منك عذب لذيذ ، تطمئن إليه النفس وينعم به القلب ، فارضى فالنعيم فى رضاك ، واغضبى فان الألم فى سبيلك لذة ، ولا تحسبى أن ندمك على الاتصال بى وبصاحبى يسوءنى ، فستعلمين إن لم تكونى علمت من قبل أن الخلود وحده لا يكفى لسعادة الخالدين ، وإنما قيمة الخلود أن يتصل من حين إلى حين بالفناء وأصحاب الفناء ليقدر نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملل ، وعن اليأس والقنوط ، وإلى أن تنعمى على سيدتى بساعة حلوة فى حضرتك أرجو أن تتفضلى فتمنحينى يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب واخلاص .

فى الحبس الاحتياطى

أمر « الزمن » بتوفيق الحكيم فحبس فى برج ساعة كبيرة فى رأس كنيسة « كومبلو » على ارتفاع الف متر عن سطح البحر . ذلك أن « الزمن » دائماً يقول : « اذا كانت المساجد والكنائس هى بيوت الله ، فأن أبراج الساعات هى بيوتى » . ولا يَعرف غير رب البرج كم من الأيام لبث المتهم فى ذلك الحبس ، لا يسمع غير دقات « النصف » و « الربع » وصرير « العقارب » التى تأكل

حيـاتنا لحظة لحظة ، و « التروس » التى تطحن وجودنا ذرة ذرة . وبينا المتهم قد أطرق يأسـاً وذلا ، لا يفكر فيما كان من أمره ولا فيما سيكون ، كأنما عقـله قد كلّ وذهنه قد أقفر ، وكأنما يأسه قد أغراه بأن يقذف نفسه فى « طاحونة الزمن » لتحيله العقارب والتروس الى دقيق يتناثر فى الهواء ويعيش سابحاً فى الفضاء . اذا « الريح » تلقى اليه برسالة مختومة من كوة فى قمـة البرج . ففض الرسالة بيد كسلى ونفس ميتة وقرأ :

عزيزى

يشق على أن تخطف منى سريعاً . وأن يذهب عنى الصفاء الذى أشرق به وجهك فى اليوم الأخير . ولـكن « السارق مسروق » ولقد سرقتك، فسرقت منى، إن « القاضى » لم يأذن لى فى دخول الحبس كى أراك. غير أنه أذن لى فى الـكتابة اليك . ولطف بى فأمر أن تحمل اليك رسالتى على أجنحة « الريح » . فاذا طالعتها فهل لى

أن أطمع فى كلمة منك تقيم بها أودى حتى تعود الى ؟

شهرزاد

وقعت الرسالة من يد السجين ، وقد تغير وجهه . لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد يقطعها قراءة. ثم صاح: «هذه المرة قد أصابت منى مقتلا!»

« أين القلم والقرطاس ؟ » فتساقطت عليه من الكوة أقلام وقراطيس . . . فجلس من فوره وكتب :

« سيدتى » . ولكن هذا النداء لم يرقه . فمزق الورقة وتناول ورقة أخرى وكتب .

«عزيزتى» .غير أن هذا اللفظ أيضا فيه فتور . وهو يريد لفظا كالسياط الساخنة . فمزق القرطاس وتناول غيره وكتب :

معبودتى

إن حبك خالد كالوجود . ولن يستطيع الزمن أن يفرق بيننا أو يحطم حبنا . إن الحب يُحلِّق فوق الزمن ، كما يحلق الفراش فوق الأزهار. إن الحب قد قتل الزمن . . . .

وما بلغ السجين هـذه العبارة حتى سمع ضحكا عريضاً وقهقهة خشنة كلها سخرية رن صداها فى المكان وارتجت لها عقارب الساعة . ثم خفت الضحك وتلاه صوت أجش عميق النبرات يقول هازئاً :

— من هذا الأبله الذى يزعم أنى قُتلت ؟

ولم يسمع السجين غير ذلك . فقـد خيم السكون . وكأن شيئا لم يكن فى هذا المكان . على أن هذا الصوت الهازىء لم يبرح له صدى يرن فى رأس السجين ويلعب بأفكاره حتى قلبها رأسا على عقب . فرفع القرطاس ومر عليه ببصره وابتسم ، ثم مزقه وتناول قرطاسا آخر وكتب :

سيدتى

أما أنى خطفت منك سريعاً وسرقت وشيكاً وأنت الخاطفة السارقة — ولا فخر — فهذا مايحدث دائما . فان السارق كما قلت مسروق . وما جاءت به الريا ذهبت به « الزوابع » ! ويظهر أن هذا قانون الحياة كما هو قانون

القصر ! وحياتنا السريعة إن هى الا خطف فى خطف . ولقد خطفتنى من أصحابى ، فخطفنى منك الزمن ، ولا أدهش اذا خطفنى من الزمن من هو أقوى منه . أما أن كلمة منى تقيم أودك فهو أمر يدهشنى ، ولا أغبطك عليه . فيالضيعة إنسان تقيم أوده كلمة منى ! . . . . وأما رغبتك فى زيارتى بالحبس فهو رفق بى ولطف لا أحسبنى أنساه لك. وبعد فأنى أخشى أن تكون كلمتى أغلظ مما كنت تتوقعين . ويخيل الى ظنى السىء بالمرأة أن كل رسالة تخلو من الاشارة الى « الحب » هى عند المرأة رسالة غليظة . وأؤكد لك ياسيدتى أنى ما كنت أضن على مثلك بهذه الاشارة لو لم يكن « الحب » هذا الصبى الرقيق الضعيف لايبدأ الكلام أول ما يبدأ الا بتحدى « الزمن » ذلك الجبار الطاغية المخيف ، ولا يفتح فمه الصغير الا بأغانى وأناشيد ينظمها من ألفاظ براقة متلألئة يرى « الزمن أنها له وحده ؛ وأنها ماوجدت الا ليرصع بها تاجه الهائل . هذه الألفاظ هى « الخلود والأبد والبقاء » يلعب بها

« الحب » الجميل لعب الأطفال بكرات البلور ذات الالوان تحت أقدام « الزمن » الساخط الساخر . الى أن يضيق «الزمن» به وبعبثه ذرعاً فينفخ نفخة صغيرة فأذا « الحب » قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه ! ومع ذلك ياسيدتى فأنت تعلمين أن أمرى الآن بين يدى « الزمن » وأن « قضيتى » الساعة موضع نظره . فهل أستطيع اليوم أن أغضب هذا « القاضى » العظيم بالانصراف الى ذلك الطفل اللعوب !؟ . .

وأخيرا ياسيدتى أرجو أن تتقبلى خالص شكرى على جميل عنايتك ، وأن تأذنى لى فى أن أضع عند قدميك :

توفيق الحكيم

دارت « العقارب » دورتها ، واستقبلتها أجراس البرج بالضجيج ، ورجعت « الريح » مسرعة تحمل الى السجين الجواب :

أيها الأسير العزيز

فهمت كل شيء : ما أشد خوفك وخوف صديقك من « الزمن » !

لقد وجه طه حسين الىّ كذلك كتابا طويلا عريضاً تترنح سطوره فرقا من مخاصمة « الزمن » ، ذلك الغول الجائع الذى يأكل الناس فى غير ميعاد غداء أو عشاء .

ولقد تبينت من قول صديقنا طه أنه لا يريد لك ولا لنفسه أن تؤكلا نيئين قبل أن يتم نضجكما وقبل أن تفرغا كل مافى جعبتيكما من كتب ومقالات . فراح يتهمنى فى صراحته الجريئة أنى أريد الموت العاجل لمن أسعى الى استنقاذه من يد الزمن . زعم غريب ! فأنا لا أعرف الموت ماهو . لأنى كما تعلم أعيش دائما . وكنت أريد لكما حياة صافية مثل حياتى فى ذلك القصر الجميل الذى لا يموت الصيف فيه أبداً . ولكن . . . لتكن مشيئة صديقك طه . وليمض فى إشفاقه على نفسه وعليك وعلى الكون المسكين ، الذى لامحالة صائر الى الفناء بعدكما ،

سائر الى حيث تنخر فيه عوامل الفساد إن غادر تماه قبل أن تريقا عليه كل ما عندكما من محابر ، وتنثرا عليه كل مافى رأسيكما من نثر ! ! ! واهاً لكم أيها الأدباء !

« لقد طال بى العهد فنسيت أن رؤوسكم الآدمية العظيمة يوم تقـــدم للدود لن يجد فيها غير « كلمات مرصوصة » لا تسمن ولا تغنى من جوع ! إنى فى حقيقة الأمر أرثى لكم معشر الآدميين : ماأشق جهدكم طول الحياة إرضاء « للزمن » ، وما أشد حرصكم على ألا يلقى بكم فى أعماق بحاره الظلماء ، التى لا يعرف هو نفسه مقرها ولا غورها : بحار النسيان ! ماحرصكم هذا أيها الحمقى ! إنكم يوم تذهبون لن يعنيكم من أمر « الزمن » شيئاً . وسوف تنقلبون أشياء لا تعرف الدنيا ولا تذكرها ولا تحفل بشعرها ونثرها ومجدها . إنكم يوم تتجردون من هذا الثوب الآدمى ، تتجردون كذلك من تلك الأوهام والأحلام التى تدفعكم الى تقدير « الزمن » . فالزمن نفسه ماهو إلا الملك المتوج على عرش تلك الأوهام والأحلام ،

فاذا ذهبت من أدمغتكم ذهب معها . فهو منسوج من مادتها . وهو أضعف وأوهى مما تتصورون . فهو لا شيء غير فنائكم الآدمى تجسم شبحا هائلا أحاط بكم من كل جانب . بل إن مخيلتكم الفانية هى التى أفرزت هذا السم الذى تسمونه « الزمن » ثم طلت به حياتكم وسجنتها فيه . فشأنكم شأن « دودة القز » تفرز من لعابها تلك المادة الحريرية التى ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها وتخنقها وتميتها .

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولا يعرف إلا أنها حماقة من حماقات البشر أو ضرورة من ضرورات حياتهم الزائلة . بل إن الوجود لا يعرف ولا ينبغى له أن يعرف هذا الكائن الموهوم « الزمن » ولقد استعان صاحبك ببيت من شعر المعرى ، بديع الخيال حقاً :

ولو طار جبريل بقية عمره

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

لست أذكر إن كنت أنا التى أوحت اليه به فى ساعة

من ساعات لهوى وعبثى : إنما الذى يدهشنى الآن هو هذا السؤال : هل لجبريل عمر ؟ وهل هو يتحرك بجناحيه فى الزمان والمكان؟ إذن فهو بشر. إلا إذا قصد بالدهر الله والوجود. فأن الحركة فى الزمان والمكان ليست من صفات الخالدين تلك كلمات. ابتدعها البشر لأنفسهم ولوصف حياتهم! إنى أعجب دائما لأولئك الذين يريدون كشف أسرار الله بكلمات من قاموسهم اللغوى! أليس من المضحك أن تصطنع أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون .. ؟!

أما « الحب » الذى تهزأ به ، فهو حقاً ضعيف رقيق كالزهرة التى لا تعيش أكثر من يوم . ولكنه جميل والجمال لا علاقة له بالزمن . فأن اللحظة منه تكفى لإضاءة حياة كاملة . إن لم تصدقنى فاصغ الى همسات فلاسفتك العظام وقد أشرفوا على الحفرة :

« الكل باطل وقبض الريح ... واحسرتاه ! ولا شىء فى حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع : غير لحظة حب ظفرنا بها »

وبعد فأنى أخشى أن أكون قد قسوت عليك .وأحب أن تعتقد أنى على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة وفية . وإني أنتظر نافدة الصبر ساعة الحكم ببراءتك . وإنك لن تجد منى فى كل حين سوى عطف خالص لا ينتظر أجراً . فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطى ولا نأخذ . على أنك إذا تفضلت فقبلت منى ، راضى النفس صادق الايمان ، ما أبعث اليك مع هذا الكتاب من حب هادىء ، لا يرجو شيئا ولا « يتحدى أحدا » ولا يعرف الأغانى والألفاظ والأناشيد ، فأنك تعيد ابتسامة الصفاء الى ثغر المخلصة لك .؟

شهرزاد

*
* *

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية ، ولم يضع وقتاً ، وتناول من ساعته القلم وكتب :

سيدتى العزيزة :

أبادر فأعترف لك أن كلامك عن « الزمن » قد

أدهشنى حقيقة . كلا ، لست أصدق أنك تؤمنين بما تقولين !

إنما هى ثورة أهاجها فى نفسك كتابي ، الذى آثرت فيه الانضواء تحت لواء « الزمن » على السكون تحت جناح « الحب » . فرأيت أن تنصرى « الطفل » بأن تحملى على « الجبار » . على أنى أراك أنت أيضا تنتضين سلاح « الكلمات » حاسبة أنك بها تستطيعين أن تقتلى وأن تمحى من الوجود هذا الكائن الذى نحيا جميعا فى أحشائه . أتأذنين لى فى أن أسألك : أين تعيشين ؟؟ ألا تحسين بأنك تعيشين فى الزمن ؟ هذا الخلود الذى تنعمين فيه ، ماهو ، وما معناه ؟ أليس هو الحياة المتصلة فى « الزمن » ! إن الزمن ليس وهما ، إنما هو إناء عظيم لاقاع له يسبح فيه الأحياء والأموات ، الخالدون والهالكون . فاذا أخرجت منه ، فاين تكونين وإلى من تصيرين؟ العدم؟ إن كان لهذه الكلمة أيضاً معنى أو وجود لكانت قليلة ! فان من خرج من قصر « الزمن » نزع عنه رداء « الخلود » . إذ لا « خلود »

إلا بالقياس الى « الزمن » ! فالزمن كما ترين يفرض سلطانه حتى على الخالدين . فهو الذى يخلع عليهم أبراد « الخلود » الموشاة داخل مملكته التى لا مبدأ لها ولا نهاية ، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها ولو طار بقية عمره فى أرجائها . نعم ، لقد صدق المعرى وطه ، فأن « الدهر » أو « الزمن » يسع فى محيطه جبريل والكون والوجود . فما دام هؤلاء جميعا قد دخلوا « مجرة » العقل الآدمى فقد خضعوا معه على الرغم منهم ومنه لأمرة «الزمن» . فنحن بغير «الزمن» لا نعى شيئا ولا نفقه شيئا ولا تصلح عقولنا لشىء. فان إبرة العقل متصلة «بمغناطيس» الزمن. هكذا خلقنا نحن البشر . وأرجو منك ألا تقولى إن هنالك وجوداً مطلقا خارج «منطقة نفوذ» الزمن والعقل الآدمى ، فأنى أجيبك من فورى ، إن ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له عندنا ، لأننا لا نستطيع أن نتصوره ، فأنت موجودة عندى لأنك قد دخلت منطقة تصورى . وما دمت داخل تصورى فأنى لا أملك أن أدفع عنك سيطرة « الزمن »

الذى يبسط حكمه على رأسى وعلى كل من دخل رأسى من خالدين وهالكين . أرأيت يا سيدتى قوة « الزمن » وجبروته ؟ أما قولك إن « الزمن » وهم أفرزته رؤوسنا الآدمية ، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مادية أو معنوية . فليس هناك فى الواقع حقيقة ولا وهم . إنما كل شىء وليد رؤوسنا وإفراز أدمغتنا . فما أنت ياسيدتى العزيزة ، وما الجبال التى تحيط بى ، وما الكتب التى أقرؤها وما الأصدقاء الذين أحبهم وما أهلى ، وما عملى ، وما مالى إلا إفرازات تخرج من رأسى . فأنت و« الزمن » فى هذا سيان . لا أستطيع أن أسمى أحدكما وهماً والآخر حقيقة .

أما دفاعك عن « الحب ، فهو جميل « كالحب » . ولست أنكر مطلقا أنه أعجبنى وأثر فى نفسى . ما أصدقك إذ تقولين أن لا شىء يستحق منا تحية وداع على الأرض مثل لحظة حب ظفرنا بها ! نعم .. ولكن .. تلك اللحظة ، أين هى ؟ أنستطيع أن نظفر بها فى كل حين ؟

وبعد ، فأرجو أن تغفرى لى هذه المرة أيضا جفاء هذا الكتاب ، فأنى إنما أردت أن أعيد اليك الثقة فى مولانا « الزمن » فما دام هو الذى ينظم حياتنا ، فهو ولا ريب الذى يقيم العدل ويرد الحق إلى ذويه .

واقبلى يا سيدتى المحبوبة خالص شكرى على عطفك الذى تجودين به دائما علىّ . ولو كنت أرى قلبى جديراً بك لبعثته اليك رسولا أميناً يقرئك السلام من

أسيرك المخلص

نوفيو

المحاكمة

جاء يوم المحاكمة . وعقدت الجلسة فى رأس «الجبل الأبيض» بالقرب من «شامونكس» . واعتلى «القاضى» القمة فى هيبة ووقار . وهو كائن طويل مديد ، لاظهر له، ولا يبدو عليه عمر ، له وجهان : أحدهما أسود والثانى أبيض . وقد اتخذ له من «قوس قزح» وساماً يزين صدره الذى كساه الجليد . وعندئذ قصف «الرعد» وهو حاجب الجلسة :

ـــ محكمة !

فنهض الحاضرون رهبة ورعباً قبل أن ينهضوا إجلالا ، وسقط ضعاف القلوب منهم مغشياً عليهم ، فلم يلتفت اليهم أحد ، حتى أفاقوا من تلقاء أنفسهم صفر الوجوه فوجدوا الناس قد جلسوا فجلسوا وكأن على رؤوسهم طير الرخ !

وعندئذ هبط من القمة صوت هادىء عميق :

ـــ فتحت الجلسة !

وأشار « القاضى » الى « الزوابع » فصفرت ومضت ثم عادت حاملة « المتهم » وألقت به على الجليـــد ثم استأخرت عنه . وعندئذ هبط الصوت العميق :

ـــ أيها المتهم ، قف !

ولكن المتهم لم يسمع شيئاً . فلقد كانت أسنانه تصطك ، وفرائصه ترتعد ، لا من الخوف وحده ، ولكن من البرد . فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن سطح البحر أو يزيد .

ولما رآى « القاضى » أن المتهم لم يبد حراكا . أشار الى حاجب الجلسة . فتقدم « الرعد » ودنامن أذن «المتهم» وقصف :

ـــ قف ، أيها المتهم ! . .

وكأن لطمة قد أصابت أم رأس « المتهم » فانبطح على الأرض لايعى . ثم ثاب الى رشده بعد قليل وهو لايذكر من أمره شيئاً . وسمع همساً خلفه فالتفت . فاذا شهر زاد مع حاشيتها والى جانبها طه حسين جالسين فى الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتتبعون مايقع فى جد وقلق واهتمام . وماعلموا أن توفيقاً أحس بهم حتى همسوا اليه مشجعين :

ـــ قف ولا تخف ! ذاك حاجب المحكمة !

ـــ حاجب . . . المحكمة ! . .

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان مازالت تصطك على الرغم منه: « إذا كان هذا حاجبها فهل

يرجى منها خير ؟ ! » ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحاً كالسكران وصاح :

ـــ أ . . أ . . أين هو القاضى ؟ لاسؤال ولا جواب قبل أن تحضروا إلى معطفى الصوفى . سأموت من البرد قبل صدور الحكم . .

فأشار « القاضى الى « الحاجب » فتقدم « الرعد » الى المتهم وقصف :

ـــ أين هو معطفك ؟

فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه الى الأرض . لكنه ثبت والتفت صائحاً :

ـــ النجدة يا أهل المروءة ! أما من حاجب ألطف من هذا ! . . أيها القاضى ، إذا تركت على حاجبك هذا فأنى لا أضمن حياتى الى آخر الجلسة . فألتمس من عدالتك لا تجعل بينى وبينك حاجباً . . ! فأن مثلى ان لم تكفه الأشارة فهو على كل حال لايحتاج الى مثل هذا الترجمان الذى يميتنى ويحيينى فى كل لحظة !

ـــ ولكنى أنا فى حاجة الى هذا الترجمان . فأن سمعى ثقيل ، لاتصل اليه أصواتكم ولاصخبكم وضجيجكم !

ـــ وكيف تسمعنى الآن أيها القاضى !

ـــ أمرت « الريح » أن تجلس أمامى طول الجلسة تنقل إلى ما يدور فيها من كلام !

ـــ لا بأس بالريح ، فهى على كل حال أرق حاشية وأهون خطباً !

ـــ فليكن ما تريد !

وأشار القاضى إلى « الرعد » أن تنح الآن ، فامتثل ووقف فى آخر المكان ينظر ولا يتكلم . وعاد القاضى إلى المتهم قائلا .

ـــ أين معطفك فنحضره اليك

فسكت المتهم وأخذ يتذكر :

ـــ أين معطفى ؟ ذلك هو المشكل ! أين تركته وأين نسيته ، لقد صحبنى فى كل مكان . لازمنى فى مصر وفى السفر وفى الجبل . وحتى فى الجحيم بين اللهيب ما تركته

وما نسيته ! واليوم وأنا فى السماء عنـــد السحاب وبين الجليد أتركه وانساه وأصعد بدونه ! . .

فتهامست شهرزاد وطه مبتسمين :

ـــ حقاً لا يحدث هذا إلا من توفيق الحكيم !

وعيل صبر القاضى فقال فى شىء من الحدة :

ـــ إنا لم نجتمع فى هـذا المكان لننظر فى قضية معطفك ! ولا إخالك تعتقـد أنى عاطل لا عمل لى فى الوجود غير النظر فى التافه من أمورك ! !

فأطرق المتهم وأرتج عليه . فنهضت شهرزاد قائلة :

ـــ فليأذن سيدى القاضى فى أن أدل « الزوابع » على مكان معطفه . إنه فى حمام قصرى !

ـــ فى حمام قصرك ؟ وماذا يصنع فى حمام قصرك ! آه . . نعم . . تذكرت !

همس بذلك المتهم . . . وطارت « الزوابع » إذ سمعت قول شهرزاد . وعادت فى مثل لمح البصر بمعطف

توفيق وألقته على منكبيه . . وما شعر توفيق بثقل معطفه حتى اطمأن وقال :

ـــ وأين عصاى ؟

فكظم القاضى ما به وقال :

ـــ انتهينا من مسألة المعطف وجاء الآن دور العصا . . ماذا تفعل بالعصا فى حضرتى . . وهى لا تقى برداً ولا حراً ولا تدفع شراً ولا ضراً !

ـــ إنى لا أشعر بأنى أنا حقيقة توفيق الحكيم إلا بمعطفى وعصاى !

ـــ هاتوا له ما يريد . إن هذا الانسان قد أضاع « منى » أكثر مما ينبغى فى غير طائل !

ولم يمض قليل حتى كان المتهم ماثلا بمعطفه وعصاه بين يدى القضاء مستعداً لكلمته وأمره . . وتنفس القاضى الصعداء :

ـــ أخيراً ! ! ألك حوائج أخرى أم ننظر فى الموضوع ؟

ـــ ننظر فى الموضوع .

ـــ حمداً وشكراً ! تقدم أيها المتهم ! ما اسمك ؟

ـــ إسمى توفيق الحكيم . .

ـــ عمرك ؟

ـــ أيها « الزمن » ! ألا تعرف عمرى ؟

ـــ معذرة ! صدقت ! إنى أعرف عمرك . ومنذا غيرى ينبغى له على الأقل أن يعرف الأعمار ؟ ! صناعتك ؟ . .

ـــ صناعتى ؟ . . أيهما ؟

ـــ أديب وكاتب روائى يختلق الحوادث ويبتدع الأشخاص . . أليس كذلك ؟

ـــ عفواً ، سيدى القاضى ! ليست هـذه صناعتى الأصلية . . .

ـــ لست أعرف لك غيرها . تلك هى التى ورد ذكرها أمامى فى الأوراق . . أديب روائى يختلق الحوادث ويزور الأشخاص . .

ـــ يزوّر ؟ ! .

ـــ أليس الأمر كذلك ، أجب بنعم أو بلا !

وقع المتهم فى حيرة . . وجعل يفكر هنيهة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ نعم ، إنى كذلك ، ومع ذلك ، فأنى لست كذلك . . .

ـــ ما هذا الجواب المعقد ! إنى أطلب إليك جواباً واضحاً بسيطاً فى لفظ واحد . أتختلق وتزيف ؟ تلك هى التهمة التى يرميك بها المدعون .

ـــ أنا أختلق وأزيف ؟ وأنا أعرف القانون . وكنت رجلا من رجال القانون ! كلا ياسيدى القاضى ! . .

ـــ أنكر المتهم التهمة . اجلس إذن أيها المتهم . واصغ إلى أقوال المدعين .

أحضروا الشاهد الأول ! . .

وعندئذ استوى « الحاجب » واقفاً ونشر ورقة فى يده وقصف :

— الشاهد الأول : شهريار !

فصفرت « الزوابع » وأقبلت تلقى بشهريار أمام القاضى . وتفرس القاضى فى الشاهد ثم قال :

— اسمك ؟

— شهريار .

— عمرك ؟ كلا ، هذا من شأنى . . صناعتك ؟

— ملك .

— فى أى مملكة ؟

— فى أى مملكة ؟ لم يسألنى أحد قبل الساعة هذا السؤال . ولم يخطر لى على بال أن أعرف اسم هذه المملكة ؟ لست أدرى . سلوا هذا المتهم !

فالتفت القاضى إلى المتهم ، فوقف :

— أيسألنى أنا عن اسم مملكته ؟ وكيف لى أن أعرف ؟ إن كل ما أعلم عن هذا المخلوق أنه ملك . ولست أدرى أين مملكته ، ولا أين موقعها من «خريطة» العالم ؟

فعاد القاضى والتفت إلى الشاهد فاعتدل :

ـــ أنا كذلك لست أعرف إلا أنى ملك .

فقال القاضى فى شىء من السخرية :

ـــ حسبك هذا . أقسم إنك لا تقول غير الحق .

ـــ أقسم .

ـــ ما أقوالك ؟

ـــ أقوالى : إن هذا المتهم قد قذفنى بالباطل وافترى علىَّ كذباً وزوّر واقعة لم تكن . فلقد جعلنى ديوثاً ؛ أدخل على شهرزاد فاجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه !

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح :

ـــ كنت تريد أن أجعل منك قاتلا سفاكاً يشرب الدماء . نعم لقد أذنبت وأجرمت وأسأت إليك ، إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً !

وأراد الملك أن يحتج. ولكن القاضى هدأ من غضبه وأسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت إلى أن يحين وقت الدفاع فيتكلم كما يشاء. وأشار القاضى إلى «الزوابع» فأقصت

شهريار وأحضرت الشاهد الثانى قمرا . فسأله القاضى عن اسمه وصناعته ثم عن أقواله . فأجاب الوزير :

ـــ أقوالى يا سيدى القاضى : إن هذا المتهم قذفنى وحط من قدرى . فلقد جعلنى أقتل نفسى من أجل امرأة ، فى الوقت الذى يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لى إثمها ودنسها !

فتغير لون شهر زاد ومالت إلى أذن طه تهمس :

ـــ لقد أدهشنى الساعة أن يكون ذاك كلام شهريار العظيم . . الذى كان عظيما حقاً فى آخر أيامه ! ولكن ما قال هذا الشاهد المدعو قمر الآن أدهى وأمر ! ! . ياإلهى ما هذه المخلوقات ! ياله من كابوس ! . .

ولم يطق المتهم سكوتاً فنهض صائحاً :

ـــ يالخيبة أملى فيك أيها الوزير الجميل ! أنت الذى عشت تعبد مثلك الأعلى النبيل . فلما ذهب عنك ذهبت . لقد انطفأت فى قلبك شمس حياتك ياقمر ، ففيم بقاؤك ؛ ولكن هذا الشاهد ليس بقمر ، إنما هو فرد من السوقة !

فضاق القاضى بالمتهم .

ـــ قلت لك اجلس ولا تنبس ! .. أحضروا الشاهد الثالث . . .

فجىء « بالجلاد » ، وبعد المقدمات المعروفة سأله القاضى عن أقواله :

ـــ أقوالى يامولاى القاضى : إن هذا المتهم قد نسب إلى زوراً أنى بعت سيفى الى صاحب الخان . وأنا رجل « موظف » أقدر واجبى وأعلم أن هذا السيف ليس ملكى وإنما هو « عهدة » لايباع ولايشرى ! .

وعندئذ قام المتهم صائحاً :

ـــ أرجو من عدالة القاضى أن يسأل فى ذلك صاحب الخان وهو لاشك قد حضر مع الشهود !

فالتفت القاضى الى « الزوابع » :

ـــ أحضروا الشاهد الرابع !

فما مرت ثانية حتى كان « أبو ميسور » ماثلا أمام القاضى .

ـــ أأنت صاحب الخان ؟

ـــ أجل ، مولاى القاضى !

ـــ هل تعرف هذا « الجلاد » ؟

ـــ كيف لا : مولاى القاضى ، وهو عميلى ومدينى، وأحد المدخنين !

ـــ أكان قد باعك شيئاً بدين عليه ؟

ـــ باعنى سيفه .

وعندئذ صاح المتهم فرحاً :

ـــ فليحى العدل ! ظهر الحق وزهق الباطل ! ألا تستحى أيها الجلاد ! ما أكذبك !

فأسكت القاضى المتهم ثم التفت الى أبى ميسور :

ـــ وأنت ما أقوالك ؟

ـــ أقوالى وحق رأسك أيها القاضى ! عجباً ! لست أرى لك رأساً ولاذنباً ! ومع ذلك فهذا ليس بالأمر الذى يعنينى ، ومادمت أنت القاضى فأنى أشكو اليك هذا المتهم ، أين هو ؟ لايشرفنى أن أراه ، هذا المتهم يزعم زوراً أنى

أدخن القنب حتى يغيب وعي . هذا باطل أيها القاضى ، فأنى وحق رأسك ، كلا لاشأن لى برأسك ، فرأسك هو لك . ولست أدرى إن كان رأس إنسان أو رأس حصان .. ولكنه رأس القاضى .. ولكن أين هو رأس القاضى ؛ عجباً إن للقاضى رأسين ؟ رأس لاشك فيه الأدانة ورأس فيه البراءة . . . وإذا تناطح الرأسان . . .

— كفى خلطاً ! إنك الى الساعة غائب الوعى تفوح منك رائحة القنب ! اطردوه ! . .

— فليحى العدل ! . .

— صه أيها المتهم . لا أريد هنا مظاهرات ! الزم الصمت ! أيها الحاجب ! ناد بقية الشهود ! . . .

فقصف « الرعد » وصفرت « الزوابع » وطارت فى كل مكان ثم عادت تعلن أن بقية الشهود وهم « الساحر » و « زاهدة » قد هربا ولم يعثر لهما على أثر . وأن شهر زاد و « العبد » حاضران فى الجلسة بين المشاهدين . وعندئذ قامت شهر زاد وأعلنت أمام القاضى والجموع نزولها عن

كل حق لها ـ إن كان لها حق ـ فى مقاضاة المتهم . وقام «العبد» فتبع أثر مولاته فيما أعلنت . وكانت الشمس قد غابت ، فمال وجه «القاضى» الأبيض عن المكان ، وظهر وجهه الأسود ، يملؤه «كلف» دقيق من نور متناثر . وأطرق القاضى لحظة ثم قال فى صوت أشد هدوءاً وأكثر عمقاً مما كان :

ـ الدفاع !

وقف المتهم لحظة مضطربا بين صمت الجموع ووجومهم، وانتباه شهرزاد والتفات طه حسين وقد أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه . . . ثم ارتفع صوت المتهم رويداً رويداً كأنما هو آت من مكان بعيد :

أيها القاضى العادل :

تهمة خطيرة تلك التى رمانى بها المدعون ، أو المدعيان، إذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للمحكمة ،

وهرب اثنان ضجرا من طول الاجراءات فيما أرى ، وتنازل اثنان كرماً ونبلا من دون ريب ، فلم يصمد فى وجهى غير ملك ووزير ! وهذا شرف عظيم !

قبل أن أبدأ دفاعى . أود أن أبدى أسفى لهذه الدعاوى التى أقامها علىّ ، أشخاص يمتون إلىّ بسبب . إنه لمن المؤلم أن أرانى منفرداً بين إخوانى الأدباء بهذا الموقف الذى وضعنى فيه اليوم هؤلاء الأشخاص المحترمون . وإنى لأعجب كلما تذكرت أن غيرى من الأدباء لم يلق من أشخاصه ما ألقى من هذا الاكرام . فها هو ذا « هيكل » يمرح طليقاً لم ترفع عليه « زينب » قضية فى المحكمة « الشرعية » وهذا « العقاد » لم يقاضه « ابن الرومى » أمام المحكمة « المختلطة » . وهذا « المازنى » ترك الأموات والاشباح وأخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه من الأحياء فلم يتذمر أحد منهم . فما بال أشخاصى أنا من دون بقية الخلق هم الذين قد أساءوا الأدب وثاروا وتمردوا ، كأنى يوم كتبتهم غمست قلمى فى مداد ممزوج

بلعاب الجن الأخضر أو ماء الفلفل الأحمر .

وبعد ، فماهى حقيقة الاتهام ؟ إنى قد زورت ولفقت وقذفت إذ جعلت الملك والوزير على صورة لا يرضيانها لنفسيهما ؟ إنى أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذى أسديته إلى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق المزعومين . إنهما قد مثلا الساعة ورأيناهما مجردين عن ذلك الثوب الذى ألبسهما إياه تلفيق وتزويرى . ماذا رأت المحكمة منهما الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير تافه صعلوك ! أين ذلك التفكير الذى وضعته فى رأس شهريار فارتفع قليلا عن الأرض ، فلم يحفل « بعبد » شهرزاد الواقف خلف الأستار بقدر ما حفل بما اختفى وراء عقلها من أسرار . . . ! ! وهذا الوزير . . .

القاضى — (مقاطعاً الدفاع) إنهما قد رفضا هذه الصورة على كل حال . وهى فى نظرهما قبيحة !

الدفاع — (يمضى) أيها القاضى ! ليس من حق أحد أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة !

إن للمبدع أن يظهر أشخاصه على أى وجه يريد مادام فيها حياة نابضة .

القاضى — وهل من حق المؤلف أن يشوه الأشخاص ؟

الدفاع — وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات ؟ وهل من حق أن أطالب خالقى بأن يغير الصورة التى وضعنى عليها ، وأن يبدل أنفى الذى لا يعجبنى بأنف آخر ، وطبعى الذى يتعبنى بطبع آخر ؟

القاضى — ولكن رجل الفن مطالب بالكمال !

الدفاع — إن الكمال فى الفن وفى الطبيعة هو خلق الحياة النابضة ، لا أكثر ولا أقل .

القاضى — والجمال ؟ ؟ !

الدفاع — الجمال هو الكمال ، هو الحياة النابضة . ولا شىء غير ذلك .

القاضى — أو يستوى عندك فى الجمال : حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوهين فى أجسامهم وعقولهم ،

وحياة نابضة أخرى كحياة « ألسبياد » الجميل الجسم ، السليم العقل ، و « هيلين » البديعة الحسن الذكية الفؤاد ؟!

الدفاع — سيدى القاضى ! إنك تضيق على الخناق وتحاسبنى حسابا عسيراً .

القاضى — (باسماً) ألست تريد قضاء « الزمن » ؟ !

الدفاع — (يفكر مليا) نعم ، صدقت ياسيدى . إن الجمال هو كمال الكمال . هو الحياة النابضة الصحيحة المتناسقة المصفاة من عيوب النقص والتشويه ، مرت عليها الطبيعة بيد التجربة والاستاذية على مدى أحقاب الأحقاب ! ولكن . . منذا يزعم أن هذا « الجمال » فى مقدورنا نحن الآدميين فى كل حين ! وهل هو فى مقدور « الطبيعة » فى كل حين ! كم مثلا من أمثلة الجمال الكامل فى « الجسم والقلب والعقل معاً » استطاعت الطبيعة أن تخرجه منذ آدم حتى اليوم ؟ وبأى ثمن صنعت تلك الآيات ؟ وبعد كم من التجاريب ؟ أ ليس الثمن ملايين الملايين من المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الأحقاب

والعصور ؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة ؟ إن الطبيعة لتتكبد العناء هى أيضاً فى خلق الجمال ! فهى لا تختلف كثيرا عن « فيدياس » ، إنه كذلك قد أسقط من فتات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكواماً على أكوام قبل أن يبرز من بينها آيته الفنية « پالاس » ! ومالى أفرق بين الطبيعة وفيدياس . كأن الأنسان شيء مستقل عن الطبيعة ! إنه جزء منها . خاضع للقانون الذى يسيرها . وذلك القانون وحده هو الكامل المنزه ، لانقص فيه ولا تقصير ، وهو الذى دبرلها وأراد هذا القصور . فأذا كان الكمال أو الجمال نادراً فى الطبيعة على قوتها وعظمتها ، فأن العمل الفنى الكامل هو عند البشر أقل وأندر . ولأتحدث الآن عن نفسى قليلا ، وأنا بين « يدى » الزمن ، فأقول إنى ما زعمت يوماً ولن أزعم أنى صنعت من هؤلاء الأشخاص « المدعين » شيئا يقرب كثيراً أو قليلا من الجمال الفنى . وان كنت صنعت ذلك لما عرفت ، فأن صانع الجمال لايراه . ومن دنا من قمة ،

الكمال أصابه الدوار ففقد شيئاً من إدراكه لما يصنع ولقيمة ما يصنع ، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين الذين يقفون بأعتاب « الله » بعد صعود طويل وجهد شاق ، فيغمرهم ضباب النشوة ، فاذا هم لايرون شيئاً ولا يميزون بعقولهم شيئاً ، ولما كنت الآن على ثقة بأنى لاأشعر بدوار ولا بضباب ، فأنى ولا جدال بعيد عن قمة « الكمال » . وكل ما أزعم لك ياسيدى القاضى فى شأن عملى هذا ، أنى كنت دائماً حسن النية ، سليم الطوية لا أمل السير بوسائلى الضعيفة ، صاعداً فى ذلك الطريق الوعر الطويل المؤدى إلى هيكل « الجمال » العظيم ، دون أن أطمع يوماً فى رؤيته ، ولو عن كثب . إنما أقضى حياتى أمشى وأتعثر فى أشواك هذا السبيل إلى النهاية . وعزائى الوحيد أنى أعيش فى طريق « الجمال » وأقضى نحبى فيه . فأذا رفق رب « الهيكل » بى ، وألفانى يوماً خليقاً أن يضع على قبرى زهرة من حديقته ، فذاك كل جزائى ، وغاية ما أطمع فيه . . . وأخيرا ياسيدى القاضى .

لست أملك إلا أن أعهد إليك باسمى وشرفى وأمرى فاحكم بما ترى . وأنت إذا حكمت فأنك تحكم بالحق والعدل . ولست أخاف وجهيك . فأن فيك أيها «الزمن» «سواد» الدهماء ، وفيك « نور » العلماء . وبهذا الحكم المزدوج على الأشياء لا يفلت حق من مصفاتك ،

***

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق فى ذلك الليل الساجى على الجموع الساهمة . وأطرق القاضى ملياً ، ثم رفع رأسه :

ـــ النطق بالحكم عند الفجر . وليفرج فوراً عن المتهم بالضمان الشخصى !

فقام « الحاجب » ونادى فى قصفه :

ـــ من يضمن المتهم ؟

فنهضت شهرزاد صائحة :

ـــ أنا أضمنه وأحفظه فى قصرى حتى الفجر .

فتحرك « القاضى » فى جلال رهيب وقال ملتفتاً إلى شهرزاد :

ـــ لا تقبل المحكمة ضمانك ، لأنها لا تأمنك عليه .

فبهتت شهرزاد ووجم الحاضرون ، ولكن القاضى لم يطل صمته بل قال مخاطباً شهرزاد :

ـــ ولأنك متهمة مثله .

غضب شهرزاد

قلت وقد اتجهت إلى القاضى واثقا بانه سيرضى ما أقول : فأنا أكفله إن أذنت ياسيدى . قال القاضى فى لهجة حلوة مرة فيها الحنان والسخرية معاً : لو أمنتك على نفسك لأمنتك عليه ، فسقط فى يدى ، واستحييت من أن أفجأ بما فجئت به شهر زاد ، وانتظرت فى الوقت نفسه أن أسمع مثل ماسمعته من توجيه التهمة إلى وأمرى بالتهيؤ للدفاع . ولكن صمت القاضى اتصل حتى قطعه

صوت مخيف اضطربت له الأرض وامتلأ به الجو ، وأوشك الجبل أن يتصدع منه فرقا ورعباً وتهالك له توفيق ففارقته قواه وسقطت من يده عصاه وخر كأنه مغشى عليه ، وإذا هو الحاجب يقول فى قصف الرعد كله ، إلى يامولاى فأنا زعيم به حتى يتصرم الليل . ثم ثاب الهدوء وثابت معه إلى المتهم قوته وعاد إليه رشده فسأله القاضى : أتقبل هذا الكفيل؟ قال مضطرباً متهالكا : على ألا يسمعنى صوته ، فأنى أخشى ألا أعود إلى أهلى كما فارقتهم سميعا . قال الحاجب فى صوته القاصف : لا بأس عليك . قال المتهم متهالكا متهالكا : أو بأس أشدّ من هذا البأس؟ . وصعدت فى ذلك الوقت من أدنى الجبل سحابة تسعى فى هدوء ولين ، فجعلت تغمر المتهم قليلا قليلا وهو يضطرب اضطرابا عنيفا ويصيح صياحاً شديداً يريد أن يخلص منها فلا يجد إلى ذلك سبيلا ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى أخذته من جميع أقطاره فاذا شخصه يخفى وصوته ينقطع والسحابة تمضى مصعدة أمامها فى مثل ما أقبلت

به من الهدوء والوقار . وألتفت فلا أجد حولى إلا شهرزاد وغلامها الأسود وإلا صاحبي وقد أطبق على المكان صمت ليس أقل عمقا ولا كثافة من هذا الليل الذى غمر كل شيء . على أن الفاظ شهر زاد كانت تخترق هذا الصمت العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف ، وكانت شهر زاد مغضبة أشد الغضب مغيظة أحد الغيظ ، ساخطة على هذا القاضى الذى لم يكفه أن رد كفالتها فى غلظة وعنف حتى اجترأ عليها وتجاوز حقه فيها ، وزعم لها أنها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع هو عن نفسه ، وكانت تقول فى صوتها الفضى الجميل : من هذا الذى يجرؤ على أن يتهمنى أو من هذا الذى يملك أن يقفنى أمام القضاء؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يكرهنى على مالا أريد ، ثم ترسل فى الجو قهقهة عذبة متصلة وهى تقول : لم يبق إلا أن تدافع شهر زاد عن نفسها وتقف من القضاة موقف المجرمة وهى التى أخذت الناس بالجد والعبث وعلمتهم الاتهام والدفاع . سيعلم هذا القاضى

كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف أمتنع عليه ، ثم تلفتت إلى وهى تقول فى شىء من الحنق تكظمه وتخفف من حدته : أرأيت إلى مشورتك ياسيدى كيف تعرضنى لمالم أتعرض له قط؟ قلت فى: أناة وهدوء : إن شخصك الخالد ياسيدتى قد يكون بمأمن من هذا البرد المهلك الذى لانقوى نحن على احتماله، فان شئت أن تردية عنا أو تحمينا منه قبل أن نأخذ فى هذا الجدال الذى أظن أنه سيكون شاقا طويلا . قالت خجلة متضاحكة : لقد أصبت. ما أدرى كيف ذهب عنى هذا ، ولم تكد تلتفت إلى غلامها الأسود حتى تغير من حولنا كل شىء . وإذا نحن فى غرفتها الهادئة الجميلة من قصرها المسحور واذا هى مستلقية بين وسائدها ، وإذا الخدم يسعون بين أيدينا بما يرد الينا القوة والنشاط. قالت شهر زاد : والآن ياسيدى وقد أتيح لك الأمن والدف، والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث إلى برأيك فى هذه الجراءة التى ما كنت لأتعرض لها لولا أنى لقيتك وقبلت رأيك فى أمر صاحبنا المسكين. قلت مهلا ،

أزيلى قبل كل شىء من بيننا هذه الخصومة التى تخلقينها وتجنين بها على ، فأنها خليقة أن تصرفنا عما يجب من تدبير أمرك . وأنت تعلمين أن الزمن لايذعن لما نريد ، وأنه كثير التقلب والجموح ، يطيل الليل إن أراد ويقصره إن أحب ، إنما هى حركة منه يدفع بها النجوم دفعاً فاذا الليل ينجلى ، أو سكون منه يمسك به النجوم فى الجو فاذا الليل ثابت مقيم . وما أدرى أراغب هو فى تعجيل القضاء فيقصر الليل أم راغب هو فى الابطاء به فيمسك أستاره أن تنكشف ويمنع ظلمته أن تزول . قالت وقد رفعت كتفيها الجميلتين وأشاعت فى الغرفة ضحكة ساحرة ساخرة : ما أشد ما تخاف الزمان ، وما أعظم ما تكبره ، وما أكثر ما تحسب له الحساب . هون عليك ، إن أمره أيسر مما تظن ، وإن تقلبه أدنى الى العبث منه الى الجد ، وإنه يستطيع أن يتهم ، ويستطيع أن يقضى فلا يغير اتهامه شيئاً ولا يحدث قضاؤه جديداً . إنما هو كائن مغرور ، قيل له إنه قوى فظن بنفسه القوة ، وخيل اليه أنه عظيم

فانتحل لنفسه العظمة ، بل خيل اليه أنه موجود فأثبت لنفسه الوجود. قلت :وقد نهضت يظهر على وجهى الغضب، ويضطرب فى قلبى الخوف : سيدتى ! إن كنت مصرة على المضى فى هذا الحديث فدعينى أنصرف فانى لا أحب مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها . وإنك لتخدعين نفسك وتكلفينها أكثر مما تطيق ، فقد قبلت الاحتكام الى هذا القاضى. أترين أنك كنت لاعبة ؟ ثم ما يغضبك من اتهامه اياك وأنت قد قبلت حكمه وسعيت الى مجلسه، وما زلت تنتظرين قضاءه وتخافين فى أعماق نفسك أن يكون قاسياً على صديقنا البائس ؟ قالت فى رفق : عد الى مجلسك ياسيدى فما دفعنى الى ما تكره الا ما أجد فى نفسى من الحفيظة والموجدة . وما كنت أقدر أن أهان وأتهم جزاء على ماقبلت من الاحتكام الى الزمن والرضى بقضائه بين توفيق وتلك الأشباح. قلت: بل جزاء على عبثك به واستطالتك عليه فيما كتبت الى أسيرك الذى أخذ منك وأنت كارهة . قالت : ومهما يكن من شىء فأنت أصل الخصومة التى

أخذت نفسى تضيق بها على قلة ما تضيق نفسى بالأشياء.
قلت : فهذا هو التجنى الذى لا أطيقه ولا أرضاه، وإنك لتعلمين أنى ماسعيت اليك إلا بعد أن دعوتنى، وما اهتديت الى قصرك هذا إلا حين دللتنى عليه ، بل حملتنى اليه حملا واختطفتنى اليه اختطافا. أفتعقدين الأمر وتخلقين المشكلات، ثم تلقين تبعة ماتفعلين على الأبرياء والآمنين الذين أقبلوا يصطافون ، فنصبت لهم من الشباك والأشراك ما ورطهم فى هذه القصة المعقدة التى لا يعرفون لأنفسهم منها مخرجا ؟

سمعت شهر زاد لهذا الحديث هادئة ثم فكرت فيه مغرقة فى التفكير، ثم رفعت رأسها الىّ وهى تقول: ربما كان هذا كله حقاً، ولكن الأمر ما زال أيسر مما تظن، فأنت واثق بأن القاضى سيعدل فى أمر صاحبك ، وإذن فستذهب الى مجلس القضاء وستسمع الحكم، فاذا برىء صاحبك عدت معه آمنين الى حيث تستأنفان اصطيافكما. كأن لم تلقيا شهرزاد ولم تعرفا قصرها المسحور. قلت ساخراً: ما أيسر ما تقولين ذلك ، كأنك تجهلين أن لقاءك فتنة وأن قصرك

سحر، وأن من دنا منك لا يستطيع أن يطيل النأى عنك، وأن من خرج من قصرك لا يستطيع أن يسلو عن الرجوع اليه ! هل لك أن تدعى هذا الدل وتعرضى عن هذا التيه، حتى نفرغ من هذه القصة التى طالت واشتد تعقدها ؟ قالت صدقنى إنى لأبعد مما تظن عن الدل والتيه؛ ولكن أكبر نفسى وأنفسكم أيضا من أن أخضع لسلطان وإن كان سلطان الدهر، ومن أن قبل اتهاماً أو أتهيأ لدفاع. قلت: ومع ذلك فأنت متهمة ولا بد من أن تدافعى عن نفسك. قالت: كلا إن لى عن ذلك مندوحة، فأنت تعلم أن هناك أستاراً يكفى أن ترفع وأن تسدل بعد أن أجوزها واذا أنا بمأمن من كل عادية لا يبلغنى شىء ولا يصل الى أحد وان كان الزمان. قلت : نعم ومن وراء هذه الاستار كنت تريدين أن تلقى توفيقاً . قالت كنت أريد أن أحفظه .قلت فانك لا تجهلين أن ما وراء هذه الأستار يسمى الموت بالقياس الينا ويسمى النسيان بالقياس اليك . أفترضين أن تسدلى أستار النسيان بينك وبين الأحياء . قالت لقد بلوت الأحياء

حتى ضقت بهم، وما أكره أن أستريح منهم دهراء فلينسوني ولأنسهم، وما أظن أنى سأشقى بهذا كما يشقون. قلت: ما كنت أعرف فيك هذه القسوة، إنك لتعلمين أنك عزاء الأحياء وسلوتهم، وأنك رحمة البائسين ونجاة الهالكين منهم. ومع ذلك فلن يخلى الزمن بينك وبين ما تريدين للأحياء من هذه الحياة الخشنة الجافة التى يملؤها الجحيم والعذاب المقيم. قالت وقد نهضت مغضبة: الزمن أيضاً؟ فأنا إذن مثلكم أمةٌ له مذعنة لسلطانه لا أستطيع منه فرارا. قلت:

ولو طار جبريل بقية عمره.

قالت وهى لا تكاد تملك نفسها:

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

سخف هذى به شاعر من شعرائكم ظنه وظننتموه فلسفة ولم تعرفوا أنه الهراء الذى ليس وراءه شىء. سترى ياسيدى أأستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع. ثم دقت يداً بيد فأقبل غلام أسود. فقالت له: سترعى هذا السيد حتى يفرغ

صاحبه من قضيته ثم تبلغهما مأمنهما ثم تلحق بي وراء الأستار. قال الغلام: الاستار ياسيدتى، إنها مأخوذة علينا. قالت من أخذها؟ قال جنود القاضى، إنهم يقومون دونها منذ وجه إليك ماوجه من حديث. قالت فستنتظرنى إذن فى القصر حتى أعود. قال تعودين من أين ياسيدتى؟ قالت من وراء الأستار. ألست قد زعمت أن الطريق مأخوذة عليكم؟ قال وعليك أيضاً ياسيدتى! هنالك ثار ثائرها فنهضت ولطمت خد العبد. واذا هو يحثو بين يديها مستغفراً ولكنها مضت أمامها لا تلوى على شىء. وتبعها العبد مستخذيا خجلا. ولبثت فى هذه الغرفة مضطربا بين الحيرة والدهش والغضب، لولا أن صاحبى، أقبل يهمس فى أذنى لقد انتصف الليل. ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انجلت عنى غمرة هذه القصة كلها وذكرت الفندق ومن خلفت فيه، ونهضت عجلا قلقاً أسأل صاحبى، ومن لنا بالعودة وكيف الطريق إلى الفندق؟ وماذا عسى أن يظن بنا من الظنون. ولم يكد صاحبى يهم بالجواب

حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لا تملك نفسها من الغضب والغيظ فتلقى على صاحبى نظرة يطير لها لبه ، فيرجع أدراجه مسرعا ، ثم تتحول إلى قائلة وقد تجاوز السخط بها حده : إنك تفكر فى العودة إلى أهلك . كلا ياسيدى : يجب أن تعلم أنى أسيرة فى هذا القصر ، أسيرة قاضيك الذى اخترته ووثقت به ، فلتكن أنت أسيرى ولن يخلى بينك وبين الحرية حتى يخلى بينى وبين النسيان !.

حلم الزمن

فلما تقضى الليـــل الا أقله

وكادت توالى نجمـه تتغور

يممنا مجلس القضاء، فكنا السابقين اليه، ولبثنا لحظات مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذى لا يرقى اليه الوصف، جلال الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبقت الجو كله من حولنا، لا تشقه إلا هذه الموسيقى الضئيلة المتهالكة التى كانت تضطرب فيه اضطرابا متصلا حلوا، فيه أمن للقلوب ولذة

للنفوس، والتى كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثة المستخفية فى ثنايا ذلك العشب الكثيف . وجلال هذه الظلمة التى كانت تروع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفى كل وجه ، لاتشقها الا أشعة ضئيلة متفانية ، ملائمة لتلك الموسيقى الضئيلة المتهالكة ، كانت تصدر من هذه النجوم البعيدة التى أخذت تجد فى الهرب ، كأنما كانت تريد أن تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح . وكانت نفوسنا تجد فى أعماقها شعورا قويا بجمال حزين مغرق فى الحزن ، كأنه صورة لهذا الكون الذى كان يحيط بنا وبغيرنا ، والذى كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف ، ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق وأصوات نحيلة تصعد من الأرض فتلقاها فى الجو أشعة ضئيلة تهبط من السماء . ومع أنا كنا قد افترقنا مختصمين او كالمختصمين منذ ساعات قصار ، فقد أحسست نفسى تدنو من نفس شهرزاد . وما أرى الا أنها كانت تجد مثل ما أجد ، واذا يدانا تلتقيان ، وإذا هى تسألنى فى صوت لم يكن أقل

نحولا من بعض هذه الأصوات التى كانت تضطرب فى الجو، مارأيك فى هذه الموسيقى ؟ أليست باهرة للعقول ساحرة للقلوب ، منسية للخطوب والأحزان ؟ وأهم أن أجيبها ، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدى الخشنة كأنها أنكرت صوتها فهى لاتريد أن تسمع صوتى، وكأنها تؤثر ألا يأخذ الحديث بيننا طريق الألسنة والأسماع، بل طريقا أخرى هى أيسر وأقرب، وهى طريق النفوس حين تتحدث الى النفوس فى غير صوت مسموع أو جرس محسوس .

وماأدرى ألبثنا كذلك وقتا طويلا أو قصيرا، ولكنا نشعر فجأة كأنا انتزعنا فى عنف من عالم الغيب ورددنا فى قوة الى عالم الشهادة . وهذه سحابة تسعى فى وقار وأناة كأنما تنزلق على الجبل حتى اذ جازت هذا المكان الذى كنانقيم فيه لم تقف ولم تتمهل، وإنما مضت فى طريقها منحدرة ولكنها تنحسر فى لطف وظرف عن شخص نجده ماثلا أمامنا ، فاذا تبيناه عرفناه وإذا هو المتهم عليه معطفه وفى يده عصاه . وأنت تستطيع أن تسأله عن

ليلته تلك التى قضاها ضيفا على السحاب ، فقد حدثنا عنها حديثا طريفا ظريفا شائقا رائقا ما أريدأن أسوقه اليك ، لأنى أقدر حقوق الأدباء فى إذاعة ما يعرض لهم من الأحداث ، وما توحى اليهم به الخطوب ، ولا سيما فى هذه الأيام التى اشتدت فيها مطالبة الأدباء وأهل الفن بحماية حقوق المؤلفين . وما أظن أن صديقنا يبخل عليك بهذا الحديث فقد سمعته يتحدث الى نفسه — وما أكثر مايتحدث صديقنا الى نفسه فيسمع الناس — بأنه خليق أن يذيع هذه القصة فى كتاب. وأخذت أشخاص مختلفة متباينة تبلغ هذا المكان ، منها مايصعد ومنها مايهبط ، ومنها ما يأتى عن يمين ومنها ما يأتى عن شمال ، وكل صامت لا يسمع له صوت ، وكل هادىء لاتحس له حركة . ثم يضطرب الجو ويهتز الجبل وتمتلىء النفوس مهابة ووقارا فقد قصف الحاجب العنيف بأن القاضى قد أخذ مكانه من مجلس القضاء .

ثم يمتلىء الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضى باللفظ والكتابة ،

ويسألها أن ترد عن نفسها هذه التهمة إن عرفت الى ذلك سبيلا . فتقف شهرزاد ولا تقول الا ألفاظا قليلة ، ولكنها قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح ، ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وَأجمل موقعه من القلوب حين كان يذيع فى ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التى كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتسحر لها النفوس ، وتسرى لها فى الأجسام رعدة لذيذة لا تعقب أذى ولا ألما ، قالت شهرزاد: لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسى، فلست أعرف لأحد الحق فى أن يتهمنى بأثم مهما يكن . وأنا الحرية كلها ، الحرية التى تشيع النشاط فى العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث الحرارة فى العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التى لا تعرف حداً ولا مدى ولا تنتهى إلى غاية ولا أمد ، ولا ترجو لشىء ولا لأحد وقارا . أنا الحرية الطاغية ، التى يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ، ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها، لأن نظام الحياة ، بل نظام

الكون، يريدها على أن تكون طاغية جامحة لا تذعن لقوة ولا تؤمن لسلطان، لا أقف هذا الموقف لأتلقى اتهاماً، لأنى فوق الاتهام. ولا ألتمس دفاعاً لأنى فوق الدفاع. وإنما أقف لأرد هذا القاضى إلى رشاده وأعيد إليه فضلا من صوابه، وأنعى إليه نفسه إن مضى فى غروره أو أسرف فى غلوائه، فظن أنه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد. لقد أصاب المتنبى حين قال منذ ألف سنة.

قال توفيق مقاطعاً. وأنت أيضاً قد أدركتك عدوى المتنبى؟ ولكنه لم يمض فى حديثه. فقد قصف الرعد قصفة ردته إلى السكوت، ومضت شهرزاد فى حديثها عن إصابة المتنبى حين قال منذ ألف عام:

أتى الزمان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه على الهرم

قالت وكنا نحسب أن ألف عام لا تعدل يوماً بالقياس إلى هذا القاضى، وأنه يستطيع أن يهرم على مهل ويشيخ فى أناة، دون أن ينتهى إلى خرف ويفارقه

حلم أو يذهب عنه صواب . وكنا نظن أن آلافا وآلافا من السنين ستمضى قبل أن نحتاج إلى أن ننبهه بين حين وحين أنه أخطأ فى الحكم أو جار عن قصد السبيل . وكنت أتهيأ لأكون منه مكان تلك الفتاة الأعرابية التى كانت تقرع لأبيها العصى تنبهه أنه جار فى الحكم أو حاد عن القصد ، ولكن قاضينا أسرع إلى الهرم وأسرع الهرم إليه حتى تجاوز كل حساب ، وما كان ينبغى لى أن أجهل ذلك أو أجادل نفسى فيه وأنا أرى بوادره تشيع فى أقطار الأرض وتفسد على الناس حياتهم فى غير بيئة، فاذا الحرية تضطهد ، وإذا آثارها تصادر ، وإذا العقل ينفى من الأرض . وإذا الأقلام والألسنة تخضع بألوان القهر والمراقبة والتضييق . وإذا رسل يعودون إلى يائسين بائسين ، يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون إليهم من ثمرات الحرية التى تذيع الخصب فى العقل والشعور . كنت أظن أنها أزمة تأتى الناس من إسرافهم فى الحضارة وتعرضهم لأخطارها وأمراضها التى تعرض

وتزول، فاذا هى أزمة تأتيهم من أبيهم الزمان الذى فارقه الشباب وتصرمت عنه الكهولة القوية وأدركته الشيخوخة وما يتبعها من أعراض الفناء والانحلال ، إلا أن أكون مخطئة وأن يكون هذا الشيخ الوقور مريضا ألم به بعض العلة ، وإذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على تمريضه والطب لما يلح عليه من الداء . قال القاضى فى صوته الهادىء الشائع العريض : حسبك ياشهرزاد فقد استنار القاضى. ثم دعا المتهم وسأله: ألا تريدأن تزيد على ما قلت شيئاً . قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشاً عنيفاً : لا يا سيدى ، ولكنى أتوسل إليك ألا تحملنى من تبعات شهرزاد قليلا أو كثيراً فأنى اراها أسرفت كثيراً ، فليكن إسرافها على نفسها لا على .

قالت شهر زاد وقد التفتت إليه ضاحكة : «ويحك ! وكذلك خنتنى قبل أن يصيح الديك !» ثم غمر المجلس صمت عميق لم يتصل إلا لحظات قصار ، وإذا نحن نسمع صوتاً هادئاً عذباً يتلو علينا الحكم، ولكننا لا نتبين

من أين يبلغنا هذا الصوت . قال الصوت والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين ودفاع المتهم الأول : ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من حق الأديب أن ينشىء أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يتاقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه . لا يغير من صورهم التى تلقاهم عليها ولا يبدل . ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلا . ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها، وأن يعيب عليه أوعلى فنه ما يكون فيهامن ضعف أو نقص أو تشويه . وما ينبغى لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، او تبغى له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً . فان فعلت فهى طاغية يجب أن ترد عن طغيانها، وباغية يجب أن تصد عن بغيها وجامحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك، وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والاتقان فى التصوير والتعبير جميعاً. ولما

كان المتهم نفسه قد اعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه فى حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعى ، وإلى أن يجد ويمعن فى الجد لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه . ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال واعترافه ببعد الأمد أمامه . ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقى الفنى، فقد قضينا أولا بأسقاط دعوى المدعين وتبرئة المتهم مما وجه إليه . ثانياً بنفيه عن سالنش وعن الأرض الفرنسية كلها شهراً وإرساله إلى سالزبورج حيث الفصل الموسيقى وحيث يستطيع أن يجد من جمال الفن ما يدنيه خطوة أو خطوتين من الكمال .

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من صدره آهة عميقة تصور ابتهاجه بما حط عنه من ثقل وما أزيل عنه من حرج ، وما مهد له من سبب لترك سالنش وسمكها الذى لم يصطد، إلى سالزبورج وموسيقاها الرائعة الحلوة معاً . ولكن الصوت يعود فيملأ علينا الجو

من جميع نواحيه قائلا : أما المتهمة الثانية فبعد أن سمعنا دفاعها الذى تزعم أنه نعى علينا وتأديب لنا، نقرر أن من حقها أن تستمتع بطبيعتها التى هى الحرية الخالصة ، ولكن فى غير إسراف ولا جموح، لأن الاسراف فى الحرية قتل لها واعتداء عليها . ومن حيث أنها قد تجاوزت الحد وجارت عن القصد واستطالت على السلطان ، بعد أن اطمأنت اليه، وثارت به بعد أن اعتمدت عليه فى إقرار العدل . ومن حيث أنها بهذه السيرة تؤذى نفسها ، وتؤذى الذين يتبعونها من رسلها الخالدين وأشياعها الهالكين . ومن حيث أنّا أحرص على الحرية وأرفق بها من أن نخلى بينها وبين هذا الطغيان الخطر، ومن حيث أنا مع ذلك نقدر حاجة الحرية إلى أن تمد لها الأسباب ولا يشتد عليها التضييق . فقد قضينا بأن يلزمها الأرق المضنى الذى تعانيه إلى آخر الصيف .

هنا نهضت مندفعا فى شىء من العنف غير قليل قائلا فى صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه ، إذن فلن تأرق

وحدها مابقيت قريبا من القصر المسحور . قال توفيق فى صوت المنكر الدهش : مارأيت مثلك رجلا يعترف بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه ، والتفتنا فاذا كل شىء قد عاد إلى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء، ظلمة مطبقة تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة وصمت عميق تتردد فيه أصوات الحشرات المتغنية . وتوفيق حائر الطرف يهز رأسه عجبا ودهشا واستغرابا ، ولسانه يتردد فى فمه : حقا لاأدرى أين أنا أو ماذا يراد بى . وشهرزاد تقول فى صوتها العذب: أنت على قمة الجبل الذى طالما تمنيت أن تصعد فيه ، وطالما غرك به الغرور، فظننت أنك تستطيع أن تبلغ قمته ثم تنتهى إلى حضيضه فى ساعات، ولايرادبك إلا ماتحب لنفسك وما يحب لك الزمان من الاستماع للموسيقى فى سالزبورج ، قال توفيق: ولكن كيف السبيل إلى سالنش لأركب القطار. قالت شهر زادلا بأس عليك. سنبلغك مأمنك ، وإن خنتنا قبل أن يصيح الديك ، وهنا أراد توفيق أن يعتذر ، ولكنها أخذت عليه طريق

الاعتذار قائلة له: بل أنا المعتذرة اليكما، فقد كلفتكما أهوالا وحملتكما أثقالا وضيعت عليكما شهرا من أشهر الصيف.
قلت: لم تضيعي علينا شيئا ياسيدتي، بل رفهت علينا وأرحتنا من سخف الحياة بما فيها من جد الأمر وهزله. قالت: من يدرى، لعلك لم تخطىء، ولعل مافى هذه القصة من سخف لايلائم ما ألف الناس من سخف الحياة الجادة والهازلة أن يسلى غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة، فما أظن أن الناس تعودوا عندكم أن يروا أديبين يعبثان بنفسيهما وبالأدب... أذيعا هذا اللغو إن شئتما، فمن يدرى، لعل اللغو يكون خير ما فى الحياة.

وأدرك شهرزاد الصباح
فسكتت عن الكلام المباح

القصر المسحور

صفحة

الاهداء	—
سمير شهرزاد	١
سجين شهرزاد	٢٣
من شهرزاد	٤٨
الى شهرزاد	٦٠
فى الحمام	٧٤
ثورة الأشباح	٩١
محنة توفيق الحكيم	١٠٢
فى حضرة شهرزاد	١٠٧
القلق على توفيق الحكيم	١٢٤
شكوى شهرزاد	١٣١
مؤاساة شهرزاد	١٣٨
فى الحبس الاحتياطى	١٤٨
المحاكمة	١٦٣
الدفاع	١٧٩
غضب شهرزاد	١٨٨
حكم الزمان	١٩٩